فيلجانس فرنيل
FULGENCE FRESNEL

الكتاب : **فيلجانس فرنيل**
المؤلف : **عبدالله بن علي الخطيب**
الطبعة : الأولى 2022
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2022MO0768
الترقيم الدولي : 978-9920-677-30-1

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

فيلجانس فرنيل

FULGENCE FRESNEL

عبدالله بن علي الخطيب

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـــة..... 7

مقدمة 9

حول حياته ومحطاته الفكرية..... 13

الرسالة الأولى حول تاريخ العرب قبل الإسلام..... 21

الرسالة الخامسة حول تاريخ العرب قبل الإسلام:

منعطف فرنيل أو النص المؤسس لدراسات اللغة الحميرية... 35

حالة شبه الجزيرة العربية في عامي 1837- 1838 43

دور فرنيل في (قضية) مذكرات فتح الله الصايغ ورحلته إلى الدرعية..... 69

حيوان القارن أو الحصان أحادي القرن: إحدى خيبات فرنيل الكبرى..... 81

رسالة فرنيل حول نتائج بعثة التنقيب العلمية إلى بابل..... 87

ترجمة مقتطفات من نصوص فيلجانس فرنيل..... 93

- نص سوق عكاظ..... 93
- حول اللغة العربية والترجمة والأدب..... 101
- حالة شبه الجزيرة العربية (1839)..... 110

- جزء من رسالة فرنيل إلى جول مول حول مذكرات فتح الله الصايغ..... 113
- بعض ما قيل عنه..... 116

قائمة ببعض أعمال فيلجانس فرنيل..... 125

عتبــة

يصـدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهــد العالــم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العــرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تماماً أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشيناً لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

مقدمة

يمكن القول إن فيلجانس فرَنيل[1] (Fulgence Fresnel) هو واحد من المستشرقين[2] الذين غابوا عن اهتمامات الباحثين، وبشكل أكبر عن الفضاء المعرفي العربي. فبرغم تعدُّد التخصصات التي انخرط فيها، وبعض المقاربات العميقة التي قدَّمها لنا، إلا أننا لا نكاد نجد له أثرًا يُذكر في اللغة العربية عدا بعض الإشارات المقتضَبة إلى دراسته المتفرِّدة حول اللغة الحميرية باعتباره من الأوائل الذين لفتوا انتباه الباحثين والمتخصصين إلى هذه اللغة التي أطلق عليها فرنيل -كما سنرى لاحقًا- اسم (إحكيلي).

تسليط الضوء على شخصيَّة معرفيَّة كتبت في تخصصات متنوِّعة: في اللغة، والأدب، والتاريخ، والأنثروبولوجيا؛ بالإضافة

---

(1) في الإشارات النادرة إلى فرنيل في اللغة العربية، ظهر اسم فرنيل تحت اسم (فنرسل) عِلمًا بأنّ حرف الـ (S) الظاهر في اسم فرنيل لا يُنطق في اللغة الفرنسية.

(2) فضَّل الباحث استعمال كلمة مستشرق على كلمة مستعرِب انطلاقًا من أن كلمة مستشرق المحمَّلة -كما هو معروف- بالدلالات الإيجابية والسلبية هي التي تنطبق على واقع الكاتب الذي يتناوله الكتاب، مستبعدًا بذلك كلمة (مستعرب) التي تميل إلى الحيادية أكثر.

إلى كون فرنيل مترجمًا بارعًا من لغات ليست متقاربة، أو ليست من نفس العائلات اللغوية، كترجماته من اللغات السويدية والصينية والعربية. تسليط الضوء على هذا النوع من القامات المعرفية (الموسوعية) يتيح لنا استعراض إنتاجه الفكري ومحاولة تقديمه، للقارئ العربي، وفقًا لما تتطلبه شروط قِيَم المعرفة، بمعنى أن هذا النص حول فرنيل هو محاولة تروم قراءةً (ملتزمةً) لمعظم إنتاجه المعرفي استنادًا إلى ظروف الإنتاج التي أحاطت بهذا المنتج؛ وباعتبار هذه النصوص خطابًا يحاكي الواقع الذي ينطلق منه. والحق أن جمالية الاشتغال على هذا النوع من النصوص (التي تتناول منتجًا معرفيًّا لكاتب محدَّد) تتيح لنا أيضًا الانغماسَ الكلي في ذات الكاتب، والولوج إلى كُنه الوقائع التاريخية وتاريخ الأفكار التي تتناولها هذه النصوص.

ولا بد من الإشارة إلى مسألتين:

أولاهما: أن هذا النص حول فرنيل هو حصيلة عمل مزدوج، فهو من جهةٍ عبارة عن محاولة للوصول إلى قراءة فاحصة لأهم الأفكار والموضوعات التي قاربها فرنيل منذ بداية اهتمامه بالمشرق واستقراره لعدة سنوات في القاهرة حتى وفاته في بغداد على إثر آخر عمل معرفي قام به في منطقة بابل، ومن جهة أخرى، لا بد من القول إن ما نضعه باللغة العربية من استشهادات ومقولات ونصوص لفرنيل هي عبارة عن ترجمة، قام بها الباحث.

ثانيهما: يتعلق بمسألة الاحتفاء بـ فرنيل؛ بمعنى أن هذا النص لا يدخل ولا ينبغي له أن يؤخذ في إطار الاحتفاء بمنتج فرنيل رغم تضمُّنه بعض ما أنتج فرنيل من قيمة معرفية للثقافتين الغربية والعربية بما أنه يمنحنا نظرةً مختلفةً حول ذاتنا الثقافية والتراثية. بمجرد أن يعلن الكاتب عن سلوكه الاحتفائي بفرنيل أو غيره، فإنه يُعلن في الوقت نفسه تجاوُزَه لقِيَم المعرفة الحقَّة. فمسألة الاحتفاء من عدمه تعود إلى الاتجاه الذي يسير نحوه التلقي النقدي للقارئ الكريم. في الوقت نفسه، فإن مسألة الاحتفاء وعدم الاحتفاء متروكة للقارئ يُقرِّرها، لكن ما هو مؤكَّد أن الفائدة مُثبَتة من تقديم نصوصه التي تاهت في ثنايا المجلة الآسيوية، ذائعة الصيت في وقتٍ من الأوقات.

في هذه الرحلة مع فيلجانس فرنيل سوف يواجه القارئ الكريم بوضوح وبشكل لافت الشيءَ ونقيضَه من وضوح المنهج إلى هشاشته، من الحرص على إعمال مفهوم التحقُّق إلى الاعتماد على خطابات منقولة غير قابلة للتحقق وتشييد نصوص كاملة انطلاقًا منها. نتساءل هنا: هل تكشف النصوص التي بين أيدينا حول فرنيل عن معضلة كبيرة تخالط معظم دراسات الاستشراق، ألا وهي معضلة التمركز الثقافي؟ هل شكَّل فرنيل نموذجًا (مثاليًّا) للوسيط الثقافي غير المحايد والأحكام القيمية المتسرعة؟ ما مدى هيمنة البُعد الغربي على ممارسته النقدية؟ وهل أثَّر ذلك في هذه الممارسة؟

ما هو مؤكد أيضًا أن فرنيل مارس ما يسميه فوكو بـ "الصراحة" La Parrêsia، بمفهومها العميق، بمعنى أن فرنيل، عبْرَ هذه النصوص، قال ما يرغب في قوله، ممارسًا صراحةً لافتةً وغير معهودة في كثير من النصوص. كتب فرنيل عن أحداث عاشها وعايشها، وعن وقائع وأحداث لم يعشها ولكنه حاول محاولةَ العارف التحقُّق والاستقصاء منها. فرنيل لا يعرف التلوُّن، كما تلوَّن غيره من المستشرقين. انطلق فرنيل منذ بداية اتصاله بالمشرق من مسيحيته ومن معرفته الموسوعية المسيحية في تعامله مع الآخر (الشرقي) مسيحيته التي بقدر ما كان ناعمًا معها، لم يتوان للحظة (بخاصة في السنوات الأولى من اتصاله بالمشرق) من إطلاق أحكام (حادة وغير مقبولة) على الإسلام.

فرنيل، على امتداد، منتجه المعرفي، لم يبلع كلماته كما يقول المثل الفرنسي، وقد يُحيل هذا السلوك الأخلاقي على التحوُّلات التي مُنِي بها خطاب فرنيل حول المشرق، بمعنى أن خطاب فرنيل (القاهرة) ليس خطاب فرنيل (جدة). رحلة فرنيل بديعة على مستوى العلاقة من السلوكيات التي تتخذها الذات مع آخَرِها مثل: إقصاء الآخر، والذوبان في الآخر، وقبول الآخر، والاندماج في الآخر.

*****

حول حياته ومحطاته الفكرية

ولد فيلجانس فرنيل في عام 1795 في قرية ماتيو (Mathieu) الواقعة في مقاطعة الكالفادوس في إقليم النورماندي شمال فرنسا. والده المهندس المعماري جاك فرنيل، ووالدته أوغيستين ميرميه تربطها صلة قرابة بالأديب والمؤرخ والأثري الفرنسي وعضو الأكاديمية الفرنسية بروسبير ميرميه Mérimée.

حرص والدا فرنيل الكاثوليكيَّان حرصًا شديدًا على تربية أبنائهم تربيةً دينيةً، وقد أثَّرت هذه التربية في مسيرة هؤلاء الأبناء؛ إذ إنها تَظهَر بشكل جَليٍّ لمن يتتبع مسيرتهم على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم المعرفية والعملية. كما أن فيلجانس فرنيل هو أخو الفيزيائي الفرنسي الشهير أوغيستان – جان فرنيل صاحب النظرية الموجهة للضوء ومخترع العدسة (الانعكاسية/ الانكسارية) أو ما عُرف بعدسة فرنيل التي شكلت منعطفًا مهمًّا في مجال البصريات.

يُعَدُّ فيلجانس فرنيل من الشخصيات متعدِّدة التخصُّصات. ومَن يقرأ رسائلَه وكتاباته يكتشف أنه على درجة عالية من التعمُّق في هذه التخصصات. فرنيل لغوي ضليع، ومؤرخ، وأنثروبولوجي، ومترجم من أكثر من لغة أجنبية (السويدية، الألمانية، الصينية،

العربية) إلى اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى كونه شخصيةً دبلوماسيةً وسياسيةً مسكونةً بمصلحة بلده ومصلحة الحضارة (الأوروبية) التي ينتمي إليها.

بدأ فرنيل حياته العلمية والمعرفية في التخصص والاهتمام بالعلوم الطبيعية، بخاصة علم الكيمياء؛ مما أفضَى به إلى ترجمة أحد أهم كتب العالم السويدي برزيليوس الذي يعدُّ واحدًا من أهمِّ مؤسسي علم الكيمياء الحديثة. ومن المؤكَّد أن لهذا الاهتمام ولهذه الخبرة التي اكتسبها فرنيل عبر الترجمة في مجال الكيمياء أثرًا كبيرًا في براعة فرنيل واهتمامه بعلم الآثار -كما سوف نرى لاحقًا- في تجربته في منطقة بدر في المدينة المنورة، وحضوره المعرفي اللافت أثناء ترؤسه لبعثة التنقيب الفرنسية في منقطة بابل، وما أشار إليه العالم أوبيير من أن فرنيل كان له دورٌ معرفيٌّ أكبر من كونه رئيسًا ومشرفًا على البعثة.

بعد تجربة ثرية مع العلوم والثقافات السويدية والألمانية، شعر فرنيل برغبة عارمة في خوض تجربة مختلفة وبعيدة عن الفضاء المعرفي والثقافي الأوربي. وجَّه فرنيل بعد هذه التجربة بوصلته وبشكل كُلِّي نحو الشرق والمشرق؛ فبدأ بتعلُّم الصينية التي لم يُخفِ إعجابه بها. اهتمَّ بها وتعلَّمها على أبيل رميّزا Abel-Rémusat متوِّجًا هذه العلاقة مع اللغة الصينية بترجمة رواية من اللغة الصينية إلى اللغة الفرنسية.

لكن رحلة فرنيل مع اللغة الصينية لم تدُم طويلًا. فلم يُخفِ فرنيل انجذابَه الدائم نحو اللغات السامية، وكانت هذه اللغات وما يحيط بها تُشكِّل فضوله العلمي الأهم مما جعله يحطُّ رِحالَه في محطته الأخيرة مع اللغات، صابًّا جُلَّ اهتمامه وفضوله على اللغات السامية. لقد لعب تكوينه الديني ومعرفته العميقة بالمسيحية واليهودية دورًا حاسمًا في قراره بالاتجاه نحو هذه اللغات. ولتحقيق ذلك لم يُخطئ الطريق في الاتصال بواحدٍ من أهم المراجع المتخصصة في اللغات السامية وفي اللغة العربية على وجه الخصوص في عصره، نقصد هنا المستشرق الفرنسي الشهير سلفستر دو ساسي[1] الذي

(1) أنطوان سلفستر دي ساسي، يعود له الفضل في تأسيس مدرسة اللغات الشرقية بباريس (INALCO) التي ترأسها دوساسي وجمع حوله مجموعةً من ألمع المستشرقين الألمان، بعدما أسس "مركزًا بحثيًّا في باريس تابعًا لمدرسة اللغات الشرقية في عام 1796، جعل هؤلاء اللغويين الألمان يتوافدون إلى هذا المركز للاطِّلاعِ على اللغة السنسكريتية، منهم: الأخوان شليغل، وهمبولدت، وفرانز بوب وغيرهم".
وقد أَلَّف دو ساسي كتابًا مدرسيًّا بعنوان: «مختارات من أدب العرب»، تضمن قراءات وتحليلات لنصوص أدبية وتاريخية اعتمد فيها على بعض مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس. ويتفق معظم المتخصصين أن دو ساسي شكل على مدى أكثر من نصف قرن واحدًا من أهم المصادر إن لم يكن أهمَّها في فهم الثقافة العربية والحضارة الإسلامية. وقد ترجم مجموعةً من الكتب والنصوص من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية. مِن ضمنها: (مقامات الحريري) و(كليلة ودمنة) و(حياة الحيوان الكبرى). ويجدر القول إن سلفستر دو ساسي هو الذي قدَّم رفاعة الطهطاوي للوسط الفكري في باريس، وأثنَى على فكره ونبوغه المعرفي.

قال عنه فرنيل: "مِن حَق فرنسا أن تفتخر بوجود عالم فَهِم المشرق وإفريقيا، ولكن كم من دو ساسي يوجد في القرن الواحد"؟! بدأ فرنيل بدراسة اللغة العربية في باريس على يد المستشرق وعالم اللغة الشهير سيلفستر دو ساسي، بعد ذلك توجه كما يشير دارمستتر إلى روما للتعمُّق في حضارة المشرق على أيدي الموارنة هناك. وفي عام 1831 ابتدأ رحلته الكبرى إلى المشرق. فبدأها بالقاهرة التي أقام بها حوالي خمس سنوات. بعدها عاد إلى باريس، وبعد انتكاسة مالية -كما يقول فرنسوا بوييون في معجم المستشرقين- انخرط في السلك الدبلوماسي وعُيِّن نهاية عام 1839 أولَ قنصل فرنسي بعد افتتاح (المكتب القنصلي) في جدة. وقد توفي فرنيل في بغداد في عام 1858، وفي المنطقة التي أحبها والتي قال عنها في إحدى رسائله الموجهة إلى سكرتير المؤسسة الآسيوية في باريس: "لا أتأسف إلا على شيء واحد وهو أنني لم أُوجَد في هذه المنطقة في وقت مبكر من عمري؛ ولا تغمرني السعادة إلا بوجودي بها".

***

يمكن الحديث عن أربع محطات رئيسة في حياة فرنيل المعرفية:

- **المحطة الأولى**: وهي بداية اهتمامه بالمعارف الأوروبية والترجمة من اللغات السويدية والألمانية إلى اللغة الفرنسية، وكان فرنيل في هذه الفترة، كما يتضح من مسيرته، بين

اهتمامين رئيسين: بين العلوم التطبيقية البحتة (على وجه الخصوص الكيمياء) وبين التعمُّق في دراسة النصوص الدينية في المسيحية واليهودية.

فرنيل عارف ضليع بنصوص التوراة والإنجيل، يُشعرنا عبر أطروحاته وتأويلاته بأنه يقترب إلى منزلة رجل دين في هاتين الديانتين. في هذه المرحلة كثَّف أيضًا فرنيل قراءاته في نصوص المؤرخين بخاصة اليونانيون مثل ديودور الصقلي[1]، وسترابون[2]، وأجاثا رشيدس الذين اعتمد فرنيل عليهم كثيرًا في مقارناته وتأويلاته للسياق الجديد الذي انخرط به. فنتج عن هذه المرحلة ترجمات من اللغات السويدية والألمانية والصينية. وبدأ في هذه المرحلة تعلُّمه للغة العربية في مهد الدراسات الشرقية، وبالالتصاق كما أشرنا سابقًا بسلفستر دو ساسي. ختم فرنيل هذه المرحلة برحلة دينية عند الموارنة في إيطاليا عمَّق من خلالها معرفتَه بطبيعة الدين المسيحي ومكانته في المشرق وفي لبنان على وجه الخصوص.

---

(1) ديودور الصقليُّ، مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول قبل الميلاد. ذاع صيته بعد تأليفه الموسوعة التاريخية الشهيرة بين سنتي 60 و30 قبل الميلاد، تناول في هذه الموسوعة تاريخ مصر وآسيا وأوروبا.

(2) سترابون (64 ق.م)، جغرافي وفيلسوف إغريقي، من الفلاسفة الرواقيين. قام برحلاته المشهورة في البلاد المختلفة في الإمبراطورية الرومانية حتى وصل إلى الحدود الجنوبية لنهر النيل في إفريقيا.

- **المحطة الثانية (القاهرة):** وتحيل على إقامة فرنيل في مصر من عام 1831 إلى عام 1835 أو 1836 بحد أقصى. هذه الرحلة شكَّلت منعطفًا مهمًّا في علاقة فرنيل مع المشرق. فقد استأنف دراسة اللغة العربية في جامعة الأزهر، وشيَّد علاقات وازنة مع مجموعة من علماء الأزهر ومصر بشكل عام. تعرَّف في تلك الحقبة على الشيخ رفاعة الطهطاوي، الشيخ محمد الطنطاوي، وأحمد فارس الشدياق... وغيرهم من رجالات الدين والفكر المصريين والعرب. إن من يقرأ فرنيل في تلك المرحلة يستشفُّ كيف أنه كان كائنًا حواريًّا كبيرًا، والدليل على ذلك ما يشير إليه من لقاءات شبه يومية مع هؤلاء العلماء تدور رحاها حول اللغة العربية وحول النصوص التي يعكف على فهمها وترجمتها من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية.

في مرحلة (القاهرة) كتب فرنيل أربع رسائل من رسائله الخمس المهمة التي عنونها جميعَها بعنوان رئيس: "رسائل حول تاريخ العرب قبل الإسلام". في هذه المرحلة تعرَّف فرنيل على (العقد الفريد) وشيَّد علاقته الأخلاقية الخاصة جدًّا مع الشنفرَى. تلك العلاقة التي صاحبت فكر وكتابة فرنيل حتـى النهاية. في تلك المرحلة استغرق كثيرًا في (أيام العرب)، فترجم وفتح كثيرًا من الهوامش حول هذه الوقائع التاريخية.

- **المحطة الثالثة (جدة وشبه الجزيرة العربية):** وهي المدة الزمنية التي قضاها فرنيل في منطقة شبه الجزيرة العربية. وهذه المحطة امتدت على تجربتين:

الأولى: كتابه/ رسالته الضخمة حول "حالة شبه الجزيرة في عامي 1837– 1838" والذي يستعرض فيه الحالة الجغرافية والسياسية والاجتماعية لشبه الجزيرة العربية. وخلال هذه الفترة، أقام في مدينة جدة إقامته الأولى مدة عام تقريبًا، وفيها التقى كثيرًا من المقيمين والزائرين لمدينة جدة، وكذلك القادمين للحج. في هذه الفترة كتب فرنيل نصوصًا ومقالات كثيرة من ضمنها رحلته إلى منطقة بدر وعن مدينة جدة –كما سنرى لاحقًا–، وبالإضافة إلى تحرير وكتابة واحد من أهم نصوصه وهو الذي فتح فيه الباب للباحثين حول اللغة الحميرية. تعمَّق في هذا النص الذي يؤرخه فرنيل (من مدينة جدة) في الأنظمة الصوتية والنحوية والصرفية للغة الحميرية التي أطلق عليها (إحكيلي). وفيها شرع بكتابة نصه الجدلي حول حيوان (القارن)، وأنهاه أثناء عمله قنصلًا في جدة.

الثانية: وهي فترة عمله باعتباره أول قنصل لفرنسا في مدينة جدة. في هذه المدّة يبدو أن فرنيل تفرَّغ للعمل السياسي والدبلوماسي وتحقيق الهدف السياسي الذي من أجله تم أُفتُتِحت القنصلية وهو كشف الواقع السياسي للمنطقة

والعمل على تعزيز الحضور السياسي والتجاري لفرنسا في هذه المنطقة في مواجهة الحضور البريطاني المكثَّف فيها.

كتب فرنيل رسائل كثيرة دبلوماسية عن الحُجاج وعن جغرافية المنطقة واجتهد في مقترحات لم يُؤخذ بها، بخاصة تلك المتعلقة بتحويل مسار الحُجاج (الفرنسيين) القادمين من الجزائر. بالنسبة لنا لم نقفْ ولو على نص واحد يمكن مقارنته بما كُتب قبل وجوده الدبلوماسي من الناحية العلمية. يبدو أنه كرَّس مهمته لما قدم من أجله، والحق أن معظم ما اطلعنا عليه من رسائل قصيرة هي رسائل إجرائية سياسية تخدم الغاية التي عُيِّن من أجلها.

- **المحطة الرابعة (التنقيب في بابل):** بعد عودته من القنصلية الفرنسية في جدة عام 1848 بقي في فرنسا حتى تعيينه على رأس بعثة التنقيب الفرنسية الموجَّهة للتنقيب في منطقة بابل. هذه الرحلة كانت آخر رحلة لفرنيل في المشرق، فكتب نصوصًا مهمَّة عن نتائج التنقيب. وحاول بكل ما أوتي من قوة أن يستثمر هذه الرحلة الأخيرة في الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من الاكتشافات الأثرية والعلمية، لكن الظروف السياسية والإمكانات المادية لم تُسعِفه في تحقيق بُغيته؛ مما أدى إلى رفضه العودة إلى فرنسا وتفضيله البقاء في بغداد حتى غادَرَنا إلى الأبد.

*****

الرسالة الأولى حول تاريخ العرب قبل الإسلام[1]

"كل ترجمة لنص قديم (تراثي) هي تدنيس لهذا النص"

كتب فرنيل رسالته الأولى "حول تاريخ العرب قبل الإسلام"[2] بعد أربع سنوات من إقامته في القاهرة، أي في حدود 1836. قَدَّم في هذه الرسالة -بنوع من التفصيل- تعريفًا دقيقًا لكتاب العقد الفريد الذي اعتمد عليه، والروايات التي نقلها عن أبي عبيدة معمر بن المُثنَّى. ويصل فرنيل في مقدمته لهذه الرسالة إلى هذا الإقرار: "أستطيع إذن بفضل مساعدة السيد فارس الشدياق وبعض الأدباء المعاصرين أن أُقدِّم للمتلقي الأوروبي نسخةً جديدةً، مَزيدةً ومنقَّحة لترجمتي لقصدية لامية العرب".

يشير في هذه المقدمة التي تمتد لحوالي 12 صفحة والتي

---

(1) FRESNEL F., 1836, Lettres sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, BARROIS PERE et B. DUPPART, Paris, 114: pages.

(2) l'Islamisme التي وردت في العنوان بحسب معجم اللغة الفرنسية فإن كلمة Islamisme مصطلح ظهر في اللغة الفرنسية في بداية القرن الثامن عشر استعمله فولتير بديلًا لمصطلح Mohamétisme ويعني به "الدين الإسلامي". ومعلوم أن المصطلح أخذ لاحقًا معنى آخر: الإسلام السياسي أو الإسلاموية.

يتحدث فيها عن ظروف إنتاج هذا النص من حيث المشقة التي واجهها للحصول على الدراسات التي تناولت لامية العرب، وعن ظروف الترجمة وغيرها من السياقات. يقول فرنيل عن عمله حول الشنفرَى: "أظن أنني أُسدي خدمة أكثر واقعيةً عبر نتائج هذا العمل، لآداب المشرق نظرًا للوقت الذي أمضيتُه لمناقشة معنى كل بيت من أبيات هذه القصيدة ومعنى كل كلمة". كما يشير إلى أن العمل الذي يضعه بين يدي الناشر هو نسخة أخرى لتحفة الشنفرَى الأدبية، بوصفه عيِّنةً من التاريخ القديم. صدح فيها الشنفرَى في الفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام. يُعبِّر فرنيل في هذه الرسالة عن وجهة نظره من أن قصائد عرب ما قبل الإسلام لم تحظَ بأهمية كبيرة؛ لأنها ليست ملاحم على غرار ملاحم هوميروس، ولكنها عبارة عن قصائدَ وأغانٍ بسيطة يتغنَّى الشاعر فيها بأحداثٍ ووقائعَ عادةً ما تكون معروفةً في عصره وفي المكان الذي يعيش فيه، وغير معروفة بشكل عام في المناطق الأخرى.

يتحدَّث أيضًا فرنيل في مقدمة هذه الرسالة عن منهجه في الترجمة ويقول: "أعترف أنني عرفت عبر ترجمة هذه النصوص ما معنى اللغة العربية الفصحى، هذه العربية التي وحدَهُ النبيُّ محمد كان قد تمكَّن منها بشكل كلي". ويضيف: "رغم أن كل جهودي منصبَّة منذ أربع سنوات أثناء وجودي في القاهرة على تعلُّم هذه اللغة المُعقَّدة (المُحبِطة) والتي وصفها أحد الوجهاء الإنجليز بـ"العربية المستحيلة"، كما أنني أعترف أنني في هذه اللحظة من

عام 1836 لم أصل إلى الاستيعاب الكلي للنصوص التي بين يدي لولا النجدة اليومية التي أتلقَّاها من الشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي يعدُّ واحدًا من أميَزِ وأشهَرِ علماء فقه اللغة في الأزهر".

يتحدث فرنيل في هذه الرسالة أيضًا عن أن المشقة تكبر وتتعاظم في الترجمة عندما يتعلق الأمر بلغتين غريبتين عن بعضهما البعض على المستويين الصرفي والنحوي، "بالإضافة إلى أن العربية التي يُترجم منها (لغة عصر ما قبل الإسلام) وقعت – كما يرى – ضحية الإهمال بعد أن ظهر الإسلام وانتشر القرآن."

وفي مقاربته لمأزق الترجمة يصل إلى تساؤل لافتٍ وهو: هل من واجب المترجم أن يختفي لصالح القائل الأصلي أو الأساسي، أم عليه أن يَحضُر بصوته ويتدخَّل بطريقةٍ ما؟

ويجيب فرنيل عن التساؤل بقوله: لو أن هذا الأمر يتعلق بكونه مؤلفًا دراميًّا فقد يكون في الواقع من واجبه أن يتلاشَى ويتوارَى عندما يصف إنسانٌ بلدَه وزمنَه. ولكن عندما يتعلق الأمر -كما يقول- بالجهد المضني الذي يسعى به لتقديم شخصيات أراد الرب أن يجعل بيننا وبينها أكثر من 12 قرنًا من الزمن فإنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يتركهم لحظةً واحدةً؛ للصعوبات الجَمَّة التي قد تواجه فهم هذه الشخصيات ومخالطتها. يقول فرنيل: إنه في كل مرة يستطيع أن يمارس الترجمة الحرفية، فهو يفعل ذلك بإخلاص، ولكن عندما يتعقَّد الأمر فإنه يلجأ إلى الشرح، وإعادة

الصياغة (paraphrase). ويؤكد فرنيل أنه غير قادر على إخفاء نفسه؛ لأنه في كل مرة يحاول أن يتماهَى مع مَن حوله ولكي يُضيف طبيعةً إلى طبيعته، ومن ثَم فإن هناك -كما يرى- طبيعتَيْن تعيشان جنبًا إلى جنب في النص في كل ما يكتبه. ويُقرُّ فرنيل أنه غالبًا ما يتدخَّل في ترجماته، ولكنه عادةً ما يضع هذا التدخُّل بين قوسين، عبر إدراج جمل كاملة ليست جزءًا من النص الأصلي، ومع ذلك يرى فرنيل أن الأمانة في الترجمة يمكن أن تعكس فكر الكاتب الأصلي. ثم يختم فرنيل رأيه حول الترجمة بهذا الخطاب اللافت؛ إذ يقول: "أشعر أن كل ترجمة لنص قديم (تراثي) هي تدنيس لهذا النص"... ويضيف أنه مع ذلك يترجم لعلَّ بعض إشعاعات شمس مكة تخترق كتاباته، وأنه يتوجَّه فيما يكتبه إلى فرنسا الشاعرية، والتي من أجلها يتحمَّل عناءَ ومشاقَّ دراسات فقه اللغة وما يحيط بها. وهنا يعلن أنه من أجل فرنسا يُجبر شيخه أن يعيـد قراءة الجملة نفسها سبع مرات... وعليه أن يعترف بأنه لم يستطع فهم أشياء كثيرة من دون شيخه (محمد الطنطاوي)، ولكن الشيخ الطنطاوي أيضًا لم يستطع فهم أشياء كثيرة من دون فرنيل.

يجدر القول إن هذه الرسالة حول تاريخ العرب قبل الإسلام تكتسي أهميتَها بالنسبة للمتلقي الفرنسي في أنها تُقدِّم للقارئ الفرنكوفوني نصوصًا تراثيةً مهمَّة تُحيل على مكونات ثقافية واجتماعية عربية (مثل: أيام العرب، ولامية الشنفرَى...)، ولكن

ماذا عن أهمية الاطلاع على هذا النوع من النصوص بالنسبة للقارئ العربي الذي رُدَّت بضاعتُه إليه كما يُقال؟!

في تصوري أن هناك أهميةً قصوَى تكمُن في اطلاعنا على هذه النصوص، تكمُن في النظر في كيف ينظر هؤلاء المفكرون والمثقفون الذين ينتمون إلى ثقافاتٍ ومشارِبَ ومدارسَ معرفيَّةٍ مختلفةٍ إلى هذه النصوص؟! كيف يقاربونها؟! كيف يفهمونها؟! كيف يُسقِطونها على الواقع؟! إن أهمية فرنيل (وكثيرين مثله)، بالإضافة إلى عبوره بهذه النصوص إلى الضفة الأخرى، تكمُن في شروحاته وهوامشه وتدخلاته واعتراضاته على هذه النصوص وما تحمله من أبعادٍ ثقافيةٍ وحضاريةٍ.

يبدأ فرنيل رسالتَه الأولى حول تاريخ العرب قبل الإسلام (بعد المقدمة) قبل أن يَلِج إلى الحديث عن أيام العرب باستحضار هذا النص من (العقد):

"قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: ما كنتم تتحدَّثون به إذا خَلَوْتم في مجالسكم؟ قال: كنا نتناشد الشعر ونتحدَّث بأخبار جاهليتنا".

وقال بعضهم: وددت أن لنا مع إسلامنا كرمَ أخلاق آبائنا في الجاهلية.

ويُعلِّق فرنيل على هذا النص بقوله: "أتفقُ بشكل مُطلَق مع هذا المسلم من حيث إنه يتحسَّر كثيرًا على كرم أخلاق الجاهلية.

كما أنني أتأسَّف كثيرًا لعدم معرفة هذا الكاتب [الشخص] النبيل الذي قال هذا الكلام وتحلَّى بالشجاعة للتعبير عما يشعر به"[1].

ارتباط فرنيل بالمنهج الأدبي والشعري والتاريخي لما قبل الإسلام وانغماسه به جعله يتموضع، على المستوى الأخلاقي في هذه الحقبة، ويرى أن هناك -كما يقول- تحامُلًا شديدًا من لدن التاريخ العربي والإسلامي على هذه الحقبة من الناحية الأخلاقية.

بدأت الرسالة الأولى باستعراض حرب البسوس بين بكر وتغلب وأسباب وتاريخ هذه الحرب وتاريخها وبعض القصائد التي قيلت على هامش هذه الواقعة التاريخية.

في معرض حديثه عن يوم منعج أو يوم الردهة وما صاحَبَ هذا اليوم -كما هو معروف- من نقطة تحول، وهي التعرُّف على قاتل شاس بن زهير في سوق عكاظ، يفتح فرنيل هامشًا طويلًا إلى حدٍّ ما يخصصه لسوق عكاظ. يطرح في بدايته رأيه حول علاقة الإسلام بالسوق[2]: "لن أسامح الإسلام أبدًا إلغاءه سوق عكاظ باعتباره ليس فقط سوقًا سنويًّا مفتوحًا لجميع قبائل العرب وإنما

(1) FRESNEL F, 1836, Lettres sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, BARROIS PERE et B. DUPPART, P: 14.

(2) هذا الرأي حول موقف الإسلام من سوق عكاظ وأن الإسلام هو الذي قضى على السوق قابلٌ للنقاش بمعنى أن مصادر عديدة تؤكد أن السوق استمر بالانعقاد بعد ظهور الإسلام.

لأنه أيضًا بمثابة مؤتمر أدبي أو بالأحرى مسابقة عامة للفضائل والمجد والشعر لتتويج بطولاتهم عبر الشعر المُقفَّى، وممارسة الجدل السلمي حول جميع القضايا".

يسترسل فرنيل في هذا النص في استعراض طبيعة السوق والآليات والمعايير التي يسير عليها بقوله: "تُعقد هذه السوق بالقرب من مدينة مكة بين الطائف ووادي نخلة. يُفتتح في شهر ذي القعدة أي في بداية الأشهر الحرم الثلاثة التي يحرم فيها كل نوع من أنواع الاقتتال؛ لذلك لم يكن من المقبول إثارة نقاشات دموية، وإنما المحافظة على نوعٍ من التماهي النبيل بين القبائل وفي حال تم انتهاك قوانين هذا التجمع، وهذا ما قد حصل بالفعل، فإن خشية التجاوزات لم تحُلْ دون الاستفادة من فضائله، فمن ناحيةٍ كان سوق عكاظ ساحةً للعواطف المجيدة، والحسد والبغضاء؛ ولكن لا ينبغي أن نغفل عن أن لعبة المشاعر تتدخل ضمن حدود معينة، انطلاقًا من أنها أمر غريزي، وحقٌّ لكل فرد كما في أي مجتمع".

وعن التعبير عن المشاعر وتموضعها فوق المعايير يربطها فرنيل بحالة (مينيرفا) بقوله: "أما عن خُطَبهم في السوق فإنها لا تقبل أية عوائق. وفي حال وُجدت فإن المُشرِّع يحاول أن يحتويها، فإما أن يختفي الشعر أو يجد الشاعر نفسه خارج إطار القانون – وهنا قد تقولون إنني أسلمكم لغضب الأشرار – لا،

أترك لكم التحكم في الفضائل الفردية والأعراف العامة. أليست مينيرفا Minerve مسلحة؟ حسنًا، فلتنزل إلى الساحة، وستحظَوْن بأجمل مشهد يمكن للبشرية أن تُقدِّمه لله وللعبقرية. الإنسانية l'humanité بطبيعتها مناضلة، وكل شِعْرِها يكمُن في الصراع الأبدي للأهواء مع الأهواء، والفضائل، والأحكام المسبقة، والأخلاق. وكل نظام يسعَى إلى إسكات مبدأ التمرُّد هو نظام حريم وإخصاء، إنه النظام الشرقي للمرأة الممتدُّ إلى كل ذي روح وحواس".

ويتساءل فرنيل عن قوة العُرف التي يتمتع بها السوق وضبط الممارسات الثقافية بقوله: "كيف نتصوَّر في الواقع أولئك الرجال الذين يحملون جراحَهم التي ما زالت تنزف والذين لهم ثأر لا بد من القيام به، يستطيعون أن يُطبِقوا الصمت -في زمن محدد- على أحقادهم، إلى حد الجلوس بهدوء بجانب عدوٍّ قاتل؟!! كيف للشجاع طالب دم أبٍ أو أخٍ أو ابنٍ -حسب مصطلحات الصحراء والإنجيل- والذي ربما أمضى زمنًا طويلًا يبحث من دون نتيجةٍ عن قاتل يجد نفسَه أمامه في السوق ويستطيع أن يتعامل معه بطريقة سِلمية، يمكن أن يقابله؟! كيف له أن يواجه بالإيقاعات والأناشيد شخصًا بمجرد وقوفه أمامه يجعله عُرضةً للاتهام بالعجز والجبن في نفس الوقت الذي يتطلع إلى أن يُجهِز عليه بعد انتهاء الهدنة؟! وأخيرًا، كيف يمكنه الاستماع إلى مديح يحتفي بتتويج

انتصار تم على حسابه، وعليه أن يتحمل جحيم النظرات من دون أن يظهر ذلك على ملامح وجهه؟! هل كانت الدماء تجفُّ في عروق العرب أثناء انعقاد السوق؟! هذه الأسئلة محيِّرة للغاية، وربما أن بعض قرائي بما وهبتهم الطبيعة من فِطنة يرون أنها عَصيَّة على الإجابة، – والحق أنه أُجيب عن هذه الأسئلة أيام الوثنية العربية بطريقة سهلة وأنيقة للغاية.

في سوق عكاظ، يأتي الشجعان مُقنَّعين. أثناء إلقاء الخُطَب والكلمات المرتجَلَة يقف بجوار الخطيب راوٍ محترفٌ يُكرِّر كلامه، عِلمًا بأنه يوجد وظيفة مشابهة لهذه الوظيفة وهي وظيفة المُبلِّغ (الناقل) المُكلَّف بإعادةِ –بصوتٍ عالٍ – ما يقوله بصوت منخفض الإمامُ في الصلاة.

لقد عرفتُ هاتَيْن الحقيقتَيْن من خلال الكتاب الذي أقرأ وأعلق عليه. ما عدا ذلك فإن استخدام القناع كان اختياريًّا تمامًا، كما يظهر من المشاجرات العديدة التي تولد وتموت في عكاظ. ولا يمكن إخفاء أن هذه الخلافات كانت في بعض الأحيان دموية، وهذا ما لا يمكن تجنُّبه في تجمُّع بدون رئيس، وفي أمَّة بلا سلطة تنفيذية(...).

في منتدى الشعراء العرب (عِلمًا بأنه تقريبًا جميع المحاربين في العصر الذي أتحدث عنه كانوا شعراء) حدث اندماج لهجات شبه الجزيرة العربية في لغة سحرية، هي لغة الحجاز، التي

استعملها محمد لقلب العالم رأسًا على عقب؛ لأن انتصار محمد ما هو إلا انتصار الكلمة. وعلى إثر تحييد الإسلام لسوق عكاظ ونبذه، بذلك يكون محمد قد قضى على برلمان شبه الجزيرة العربية وضرب في مقتل هذا المجتمع القبلي الفريد الذي عبر أعنف الحروب[1]، لم ينسوا أصولهم المشتركة، ويحضرون في كل عام إلى هذا التجمُّع الوطني لتذوُّق لذة الاقتراع العام الرائعة. ومنذ ذلك الحين أُبدِلت التقاليد المُسماة بـ(روايات) بالتقليد الذي يُسمَّى بـ(حديث)، وهو يحيل على رجل واحد، هو محمد".

في هذه الرسالة يستمرُّ فرنيل في ترجمة واستعراض ونقل وقائع مجموعة من أيام العرب مثل: (يوم بطن عاقل، ويوم رحرحان، ويوم شعب جبلة،...). ثم بعد ذلك يخصص فرنيل الجزء الأخير من رسالته الأولى حول تاريخ العرب قبل الإسلام لـ (لامية العرب)، ويشير إلى أن هذه النسخة من ترجمته للامية العرب هي ترجمة منقحة ومراجَعة للترجمة التي نشرها قبل ذلك في مجلة باريس (La revue de Paris) وأنه يحرص على القول إنه يكرر إهداءَ هذا النص إلى الدكتور فاستون؛ لأنه هو الذي بعث في نفسه المنهزمة روحَ العودة إلى تعلُّم لغة عالِمة من لغات الشرق،

(1) قد يكون من الملائم القول هنا: إن فرنيل يجهل تمامًا أن الإسلام لم يتعامل مع سوق عكاظ بهذه القسوة؛ إذ إن السوق- كما تقول الروايات التاريخية- استمر بنشاطه بعد مجيء وانتشار الإسلام.

اعتقدَ أنه لم يعد لديه القدرة على تعلُّمها واقتحام عوالمها. وهي اللغة التي -كما يقول- شَعَر بانجذاب حقيقي إليها منذ كان صغيرًا وهي اللغة العربية.

يشير فرنيل ويؤكد على الدور الذي لعبه سيلفستر دو ساسي في تقديم هذه التحفة الفنية والأخلاقية للقارئ الغربي وأنه عندما يترجم ما سبق لأستاذه ترجمته فإنه لا يتموضع في موضع أي نوع من المنافسة أو بحث عن أفضلية، ولكن الذي دفعه هو أنه حظِيَ بأنه اطلع على شرح الزمخشري لهذه القصيدة وهو ما لم يطَّلع عليه دو ساسي أثناء مقاربته لهذه القصيدة (صـ 88). والسبب يبدو أنه لا يوجد إلا نسخة واحدة في أوروبا محفوظة في مكتبة الإسكوريال. ويؤكد أن حصوله على نص الزمخشري هو عُذره الوحيد الذي جعله يعكف مرةً أخرى على دراسة لامية العرب.

يتحدث فرنيل عن إشكالية تعددية المعنى التي تظهر في نصوص الشارحين لقصيدة الشنفرَى وأنها ظاهرة طبيعية نجدها كذلك في تفسير القرآن حيث نجد أكثر من تفسير للآية الواحدة. مما يترك الخيار -كما يرى فرنيل- للقارئ لتَبنِّي ما يراه ملائمًا.

يتأسَّف فرنيل كثيرًا قبل أن يلِجَ إلى ترجمة لامية العرب على الهجران الذي مُنيت به نصوص ما قبل الإسلام، ويشير إلى أن أهمَّ المُؤوِّلين والشُّرَّاح وعلماء اللغة لم يستطيعوا أن يَفكُّوا بالكامل شفرات هذه النصوص، والسبب يعود برأيه إلى عدم دراية هؤلاء

العلماء (الذين من ضمنهم العلماء الذين احتكَّ بهم في الأزهر) بطبيعة اللغة العربية وكُنهِها في حِقبة ما قبل الإسلام. كما يرى أن تمكُّنهم من النحو لم يَمنحْهم القدرةَ الكافية على مجابهة المسألة المُعجمية. وهذا الواقع أفضَى من وجهة نظره إلى فقدان الثقة بالمتخصصين، وأفضَى بالمعاصرين إلى الاجتهاد في البحث عن المعاني. ويقول: بما أن الحالة في هذا التعقيد فإنه من جهته لم يدَّخِر جهدًا في البحث عن المعاني على طريقته(90).

في ترجمته وتحليله لقصيدة الشنفرَى يشير فرنيل إلى أنه اعتمد -بالإضافة إلى اجتهاده الشخصي- على شرح الزمخشري ودراسات دو ساسي وصديقه الشيخ محمد الطنطاوي الذي -كما يقول- يفهم جيدًا المُعلَّقات. يؤكد في مقدمته للترجمة على أنه: **"يعيد إنتاج النص"** وأنه يُقدِّم للقارئ الفرنسي نصًّا تقريبيًّا جديدًا. يقول في خاتمة مقدمته: "لا أستطيع أن أنهي هذه الرسالة دون أن أُعبِّر عن شكوى وأمنية. يبدو أنني أتفهَّم الشنفرَى وأتماهَى معه للحظة، وأشعر بالحاجة إلى غرس كل فكرة في روح أبناء عصري. هذه الحاجة تنبع من طبيعة الإلهام: ولكن تأملوا قليلًا هذه المفارقة، الشنفرَى رجل مفترس، رجل دم، رجل لم يعرف قط في حياته القراءة والكتابة. يسكب الشنفرَى مراراته وكبرياءَه في 28 مقطعًا خاضعة لقافية ثرية ومتفرِّدة، ولقواعد نحوية مُعقَّدة للغاية. التعبير عند الشنفرَى لا يعاني بل يتمتع بقوةٍ تُشبِه قوَّة فِكره. أما بالنسبة لي: هل أنا رجل مفترس؟ لا. أنا رجل يحب المطالعة

والفكر، مترجم إلى اللغة الفرنسية، مترجم محلَّف اعتاد الكتابة على كل النغمات والمسارات التي يصعب على كثير من الناس أن يتخيَّلها، من مجال الكيمياء إلى النصوص الرومانسية، والحق أنني أتصبَّب دمًا وعرقًا لكي أُنتج نثرًا شاحبًا باللغة الفرنسية يعكس هذا التدفق الهائل".

*****

الرسالة الخامسة حول تاريخ العرب قبل الإسلام: منعطف فرنيل أو النص المؤسس لدراسات اللغة الحميرية[1]

يكاد يُجمع اللغويون الذين اهتموا منذ القرن التاسع عشر بلغات جنوب الجزيرة العربية على أن فيلجانس فرنيل هو أول باحث غربي لفت الانتباه إلى وجود اللغة الشحرية (المتفرعة من الحميرية الأم) في جنوب الجزيرة العربية وفي منطقة ظفار العمانية على وجه التحديد. تقول الباحثة منيرة الأزرقي في هذا الصدد: "إن أول من عثر على هذا الفرع من أسرة اللغات السامية من الباحثين الغربيين هو القنصل الفرنسي فولجانس فرنسيل؛ إذ كتب عن اللغة الشحرية عام 1838"[2].

قدم فرنيل في هذه الرسالة دراسة تكاد تكون متكاملة للغة الشحرية (الحميرية)، متكاملة لأنها من حيث إنها احتوت على

(1) FRESNEL F., 1838, Cinquième Lettre sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, dans Journal Asiatique n°: Décembre 1838, Paris, PP: 529-570.

(2) منيرة الأزرقي، اللغات العربية الجنوبية بين التوثيق والتفريط، كتاب الفيصل.

مقاربات متعددة شملت الأنظمة الأساسية لكل لغة: النظام الصوتي، والصرفي، والدلالي[1].

يُعدّ فرنيل -بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنًى- رائدَ دراساتِ لغات جنوب شبه الجزيرة العربية. باعتبار أنه هو المبادر إلى اكتشاف هذا الكنز اللغوي الحاضر في جنوب الجزيرة العربية على وجه الخصوص. يمكن القول إن فرنيل هو الذي أضاء الطريق لمَن بعده مِن الباحثين من كبار اللغويين الغربيين الذي سَبَروا أغوار هذه اللغات بدراسات وترجمات تجاوزت الألف دراسة كما تشير الأزرقي في المقال الذي أشرنا إليه أعلاه.

بعد نشر رسالة فرنيل بسنتين تقريبًا "قام في عام 1840 رويدجر Roediger عالم اللغات الشرقية المختص باللغة العربية بدراسة حول (فرنسيل واللغة الحميرية) واقترح أن تُسمَّى هذه اللغة باللغة الحميرية أو الحميرية العامة"[2].

كما " اشتغل جزينيوس Gesenius في عام 1841 على دراسة بعنوان: (عن الحميرية وكتابها) خصص جزءًا منها لدراسة الأصوات

---

(1) الحق أننا لا نعلم هل تُرجم هذا النص (أو حتى جزء منه) إلى العربية؟ وفي حال لم يترجم، ولأن المقام هنا لا يتسع أبدًا لإنجاز هذه المهمة، فإننا نوصي بترجمته للوقوف على وجاهته العلمية وما تضمَّنه من أطروحات معرفية.

(2) علي تبوك، نقلًا عن سالم سهيل الشحري، اللغة الشحرية وعلاقتها بالعربية الفصحى.

والصرف في الشحرية معتمدًا على مادة فرنسيل"[1].

كتب فرنيل هذا النص في عام 1836 في مدينة جدة أثناء إقامته الأولى في جدة قبل أن يعود إليها لاحقًا باعتباره أول قنصل فرنسي يُعيَّن في هذه المدينة.

كعادة فرنيل في كل مرة يعقد العزم على مقاربة معرفية جديدة، يشرع في البحث عن ملاذ عند أحد المتخصصين، أو عند أولئك الذين يستطيع أن يطبق عليهم استقصاءاته المعرفية للتحقُّق من الفرضيات التي يطرحها. فمثلما أن رسالته الأولى التي قدم فيها للقارئ الأوروبي بعض أيام العرب وقصيدة الشنفرَى كان –وهو يدرس ويحاول فك شفرات هذه النصوص التاريخية والثقافية– على تماسٍّ مباشر وشبه يومي مع مجموعة من علماء الأزهر، نجد أنه يبدأ هذه الرسالة بالحديث عن رفيق دربه المعرفي في مقاربته للغة الحميرية (المهرية) أو ما يسميه بـ لغة (إحكيلي). يبدأ في تقديم (محسن). محسن الذي كان الملهم الأول والأستاذ الأول لفرنيل في مقاربته للغة الحميرية كما يقول فرنيل. وما يدعو للتأسف حقًّا هو أن فرنيل برغم الدور المركزي لهذه الشخصية التي وصفها فرنيل بأنه شنفرى آخر (دون الموهبة الشعرية) إلا أننا لا نعرف عنه سوى أن والده كان من قراصنة البحر الشجعان. يقول فرنيل عن (محسن): "هذا الرجل الذي أستسقِي منه كل

(1) المرجع نفسه.

يومٍ الأسماءَ والضمائرَ والأفعال وتصريف الأفعال [من اللغة الحميرية] التي تهطل عليَّ منه كهطول المطر...".

اعتمد فرنيل في تحليله للغة الحميرية (المهرية) على كفايته اللغوية الكبيرة التي اكتسبها من تمكُّنه الفائق ودرايته باللغات السامية وبخاصة اللغة العبرية في فهم ومقارنة ما جمعه ولاحظه من متحدثي هذه اللغة.

يؤكد فرنيل في بداية هذه الرسالة حول اللغة الحميرية يقينه – كما يقول– بأنه لا يوجد في اللغة الحميرية، كما هو الحال في جميع اللغات السامية، سوى تصريف واحد (une seule conjugaison) كما أنه يشير إلى أهمية الأخذ بعين الاعتبار أن اللغة الحميرية تحتوي على ستة أحرف علة وأن أحرف العلة في الأحرف الأساسية (Radicales) تلعب دورًا في تصريف الأفعال في لغة (أحكيلي).

لقد فصَّل فرنيل في هذه الرسالة تفصيلًا مدهشًا حول صلة القرابة التي تجمع بين اللغة الحميرية واللغات السامية الأخرى (صـ 531)؛ يبدأ في أوزان الأفعال الثلاثية والرباعية والخماسية ثم يتوقف عند أحرف العلة وبعدها يتعمَّق في واقع وطبيعة الأفعال في هذه اللغة.

لا بد –ونحن نتحدث عن هذه الرسالة في اللغة الحميرية– من الإشارة إلى رافدٍ من أهم الروافد والعوامل التي ساعدت

فرنيل على إنتاج هذا النص وتعزيز البُعد المعرفي عن اللغة الحميرية، نقصد هنا اللقاء الذي جمع في جدة عام 1836 بين فرنيل والعالم اللغوي الكبير أنطوان دابادي[1] Antoine d'Abbadie والذي يعدُّ واحدًا من أهم المتخصصين في اللغة الإثيوبية أثناء إقامته القصيرة في جدة. من ثمرة هذا اللقاء -كما يقول فرنيل- ما اتضح لـه مـن فروق كبيرة بين اللغة الإثيوبية واللغة الحميرية ومن أن اللغــة الإثيوبيـــة أقـرب في بنيتها إلى اللغة العربية منها إلى اللغة الحميرية، وأن هذه الحقيقة تذهب في الاتجاه المعاكس لتصوراتنا عن هذه العلاقة، برغم ذلك -كما يرى فرنيل- فإن كل هذا لا يمنعنا من إدراك أن هناك علاقة قرابة مؤكدة تحيل على الأصل المشترك لهذه اللغات.

---

(1) أنطوان دابادي رحَّالة وعالِم لغة وعالِم جغرافي وفلكي ترأس أكاديمية العلوم في فرنسا عام 1862، بين عامي 1838 و1849 قام مع أخيه أرنو برحلة علمية إلى الحبشة جمع فيها كنوزًا في مجالات اللغة والأعراق والجغرافيا، وفي أثناء هذه الرحلة كان اللقاء في جدة بين فرنيل ودابادي على الأرجح في عام 1838. ما يميز دابادي أنه كان مستقلًّا على المستوى المادي ومن ثَم لم يكن تحت وطأة الإملاءات الدبلوماسية التي غالبًا ما تأخذ الرحَّالة أو الباحث في اتجاه محدَّد قد لا يرغب هو بذلك لولا حاجته المادية، وهذا ينطبق حتمًا على فرنيل الذي مُنِي بخسارة مادية أجبرته على الاتجاه نحو الدبلوماسية لغرض العودة للمنطقة واستكمال أبحاثه وفضوله المعرفي. والحق أن هذا اللقاء بين فرنيل ودابادي وما حدث بالتفصيل بين هذين الباحثين يستحق المزيد من البحث والتقصي.

يؤكد فرنيل على أنه في مقاربته هذه يحاول أن ينقل إلى القارئ الأوروبي عناصر نحوية وصوتية تختص بها اللغة التي يُخضِعها للدراسة كما يتحدثها أهلها في منطقتي مرباط وظفار. لقد حرص فرنيل دائمًا على القول بأن منهجه الذي وجده الأنسب لإيضاح هذه اللغة وشرحها للقارئ الأوربي هو عبر مقارنة مكونات هذه اللغة بإحدى مكونات إحدى اللغات السامية وأنساقها التي نعرفها. ومن هذا المنطلق -كما يقول فرنيل- فإنه من الطبيعي أن تكون المقارنة بين اللغة التي يتصور أنها أقرب إلى اللغة الحميرية وهي اللغة الإثيوبية، ولكنَّه لإنجاز هذه المقاربة اختار أن يرتمي في أحضان اللغة العربية لعدة أسباب، من أهمها أن حضور اللغة العربية وقُرَّاءها في أوروبا أهم من اللغة الإثيوبية، بالإضافة إلى رغبته في المحاولة في حصر الأصوات في اللغتين الحميرية والعربية. يقول فرنيل في هذا الشأن: إن اللغة الحميرية تتضمن 36 صوتًا تتطابق مع أصوات تُماثلها في اللغة العربية لكن هناك على الأقل 13 صوتًا غير موجودة باللغة العربية وحاضرة بقوة في اللغة الحميرية. ولا بد من القول إن فرنيل تفرَّد باعتباره أول من تحدَّث عن اللغة الحميرية من حيث كونها تتضمن أصواتًا صفيرية احتكاكية جانبية على جهة اليمين.

كما أن فرنيل يتوقف في هذه الرسالة عند علاقة خط الجزم العربي بالخط المسند الحميري ويعترض على فرضية أن "الخط العربي جُزم أي قُطِع عن خط حمير". يرى فرنيل أن هذا "غير

مقبول" لأنه من المعلوم أن الخط الحميري مثلنا [أي في اللغات الأوربية] ومثل الهنود والإثيوبيين يكتب من اليسار إلى اليمين. (صـ 556) كما أنه من المرجح أنه في خط المسند لا يوجد حروف نهائية (lettres finales) ولا فصل بين الكلمات (خط متصل) وأن كل شيء يشبه طبيعة اللغة السنسكريتية. كما أن ما يفترضه السيوطي تجاه نشأة خط الجزم، كما يرى فرنيل، لا يجعلنا نذهب إلى القول إن خط الجزم مشتق من المسند(صـ557).

يمكن لنا أن نتحدث، بلا تردد، عن منعطف فرنيل فيما يتعلق بدراسة اللغة (الحميرية)، باعتبار أن ما قدمه لنا فرنيل في هذا النص عبارة عن اشتغال جاد يلبي شروط المعرفة الأساسية: وهما شرطا الفرضيات الوجيهة والتحقق المعرفي. نتحدث عن فرضيات وجيهة لكون فرنيل مسكونًا بفقه اللغات السامية وتلميذًا جادًّا لمن سبقوه في مدرسة الدراسات الشرقية في باريس. ونتحدث عن التحقق المعرفي فيما يخص الاستقصاءات اللغوية المباشرة التي قام بها كملازمته لأهل اللغة (حسن وآخرون) واللقاء الشهير مع أنطوان دابادي في مدينة جدة.

حالة شبه الجزيرة العربية في عامي 1837 ـ 1838[1]

نشر فرنيل مقالًا من حوالي (28 صفحة) في مجلة Les deux Mondes[2] في عددها السابع عشر ضمَّنه ترجمةً للقاء أو المناظرة الشهيرة بين كسرى والنعمان بن المنذر التي تؤرَّخ في بداية القرن السابع الميلادي، وفي الجزء الثاني من الرسالة استعرض حملة محمد علي على الدولة السعودية الثانية والغايات العثمانية التي تكمُن خلف هذه الحملة.

يشير فرنيل في بداية النص إلى أن ترجمة هذه المناظرة التاريخية جاء بناءً على طلب مجموعة من المهتمين من داخل أكاديمية النقوش والفنون. وأن هناك إلحاحًا وفضولًا كبيرًا من قِبل هؤلاء المتخصصين والمهتمين بمعرفة المزيد حول العلاقة التي جمعت العرب بالفُرس، كما يقول.

---

(1) FRESNEL F., 1871, L'Arabie vue en 1837-1838, Journal Asiatique n°: Janvier – Février 1871, 104 pages.

(2) مجلة شهرية متخصصة في الأدب تأسست في عام 1829، وتعدُّ واحدة من أقدم المجلات التي لا زالت تصدر حتى هذه اللحظة. نشر بها كبار الكتاب الرومانسيين.

اعتمد فرنيل على ما أورده ابن عبد ربه في كتاب الوفود من (العقد). وبالتحديد رواية ابن القطامي عن ابن الكلبي. والحق أن الترجمة الكاملة لهذا اللقاء يمكن اعتبارها من الترجمات الدقيقة. فلم يمارس فرنيل التنثير أو إعادة الإنتاج كما فعل مع قصيدة الشنفرَى. ونلاحظ أنه في هذا النص كان مرتاحًا جدًّا على مستوى الولوج إلى معاني النص. لقد قدَّم -في تصوري- فرنيلُ للقارئ الأوربي ترجمةً استثنائية تنمُّ عن انغماسًا عميقًا في المعاني وفهمًا دقيقًا لكل ملفوظ. إن إبداع فرنيل يكمُن في قدرته على فهم معاني كلمات ومصطلحات يحتاج صاحب العربية الأم أن يتسلَّح بعتاد لغوي كبير لكي يفك شفراتها. ما فعله فرنيل في ترجمة هذا النص أنه برغم عبوره بالنص إلى الضفة اللغوية الأخرى إلا أننا وجدنا أنفسنا أمام نص بديع باللغة الفرنسية لم يفقد كثيرًا من لذته رغم المخاطر (الطبيعية) التي عادةً ما تعتري هذا النوع من الوساطة المعرفية. وما يمكن أن يُتأسف له حقًّا أن فرنيل نقل هذا النص إلى اللغة الفرنسية، ولكن لم يعلق عليه ولم يفتح حوله هامشًا واحدًا على حد علمي.

في الجزء الثاني من هذا المقال، انتقل فرنيل من تاريخ العرب قبل الإسلام إلى واقع العرب في شبه الجزيرة العربية. فتحدث عن حالة شبه الجزيرة بما هو مقدمة للكتاب الذي سوف نستعرض في هذا الجزء ملخصًا لمضامينه. في هذا الجزء من المقال المنشور في مجلة Les deux mondes المشار إليه أعلاه، يتحدث

فرنيـل عن لحظة وصوله إلى ميناء ينبع في طريقه إلى جدة تحديدًا في سبتمبر 1837. كما أنه تطرَّق إلى حالة التململ والرفض التي يواجهها الأتراك في منطقة عسير وولائهم لابن سعود وتفضيله عليهم[1].

يتطرَّق ضمن تأمُّلاته أثناء إقامته الأولى في جدة إلى علاقة العرب مع المال، ويرى فرنيل أن "الصفة البارزة للعرب الذين يتعاملون اليوم مع الأتراك هي الريال"[2]. يشير فرنيل إلى أن أحمد باشا كان يعي ضعف العرب أمام المال؛ لذلك اعتمد في سياسته كسب ولاء السكان عبر الإغداق عليهم من الأموال التي يتلقاها من الأتراك. ويضيف أنه برغم تمسُّك العرب بجنسيتهم وهويتهم إلا أنهم مع ذلك لا يمكن أن يرفضوا أموال الأجنبي وذهبه. ويذهب إلى أنه قد يذهب إلى القول إن مجموعةً ممن هم في الحجاز في ذلك الزمن يفضلون "(عصملي) كريم على شريف جمَّاع للضرائب"[3].

قبل أن يشرع فرنيل في الحديث عن طبيعة التركيبة السكانية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، يؤكد أن المصلحة تُحتِّم عليه وصف الواقع المعاصر إلا أن ميولَه المعرفي وعشقه الأكبر ليس

(1) شبه الجزيرة العربية، مجلة Les deux Mondes ص 16.
(2) المرجع نفسه صـ 19.
(3) المرجع نفسه.

التعمُّق في علاقة العرب المعاصرين مع الأتراك والإنجليز وإنما ما يغريه ويحبه هو العودة إلى ما حظي به سابقًا من اكتشاف لغة الحميريين التي يتكلمها سكان ظفار ومنطقة المرباط والتي -كما يقول- يجد فيها كثيرًا من الكلمات العبرية.

في هذا المقال نلاحظ توقف فرنيل عند الشخصية العسيرية في ذلك الوقت، ويتحدث عن منطقة عَصيَّة على التذعين، برغم المحاولات المستميتة من الأتراك لتحقيق ذلك. يقول فرنيل عن الشخصية العسيرية: "فقراء، محاربون، تتملكهم أعلى درجات الغيرة على استقلالهم، إنهم سويسريو عسير [تشبيه بسكان سويسرا]. كما أن فرنيل في هذا النص، قد يكون من الأوائل الذين صوروا بشكل دقيق مشهد الختان في جازان. لقد صور المشهد من خلال ما نقله له سالم بانعمة الذي يصفه بأنه أخطر رجل التقى به في مدينة جدة بكل تفاصيله، ولم يستنكف فرنيل كعادته من الحكم على هذا المشهد من دون أن يأخذ في الحسبان الأبعاد الثقافية التي تُحيط بظروف إنتاج هذه الممارسة. يقول[1] في هذا المقال: إن سكان عسير يكرهون الأتراك كما يكره الهيغنو البابا les hugunenot.

يختم فرنيل هذا النص (المقدمة) بالتعبير عن رأيه حول دور الصحراء ومعرفة التعامل مع الصحراء في تمنُّع منطقة نجد ووسط شبه الجزيرة على الاستعمار والسيطرة. يقول: "في جميع الأحوال

(1) المرجع نفسه صـ 24.

فإن الرعاة وأصحاب الجِمال يستطيعون الهروب إلى الصحراء مكتفين بحليبها كغذاء وحيد. إنَّ الصحراء تستعصي على الراغبين في السيطرة على هذا العالم، ويبدو أن الرب أراد لها أن تشكل على الأقل الملاذَ الأنسبَ لمن ينشد الاستقلال عن كل ملذات الحضارة"[1].

أعود إلى النص الكامل حول "حالة شبه الجزيرة العربية في عامي 1837 و1838". يمتد هذه النص إلى حوالي 104 صفحات. نُشِر هذا النص في المجلة الآسيوية عام 1871 أي بعد وفاة فرنيل بحوالي 16 عامًا يشير مول (Jules Mohl) في مقدمته لهذا النص المهم إلى جهود شقيق فيلجانس فرنيل (ليونور) ورغبته العارمة في جمع كتابات ونصوصه أخيه ونشرها من جديد بالاتفاق مع إحدى دور النشر، الأمر الذي لم يتحقق نظرًا لوفاة شقيق فرنيل قبل أن ينجز مشروعه.

كما يشير أيضًا مول إلى أنه استبعد من هذه الرسالة الجزء المتعلق في اللغة الحميرية والمقاربات الإضافية المعرفية التي قام بها بعد اطلاعه في جدة على المدونة المهمة حول اللغة الحميرية التي نقلها الشاب آرنو الذي وقف ودوَّن كثيرًا من النقوش التي وجدها في اليمن. يؤكد مول أنَّ سبب الاستبعاد يعود إلى أن هذه المقاربات سبق وأن نُشرت في المجلة الآسيوية.

---

(1) المرجع نفسه صـ 25.

يصف فرنيل في هذا النص إقامته في مدينة جدة، ويُعبِّر عن سعادته بالإقامة في هذه المدينة. يتحدث عن إعجابه بالناس وبالحياة وبالطراز المعماري البديع لمباني مدينة جدة ومساكنها. كما أن فرنيل يشير إلى ظاهرة على قدر كبير من الأهمية وهي عامل الوقت الذي يلزم الرحَّالة أو المقيم لكي يملك المشروعية في الكتابة عن المكان وعن سكانه. يندد فرنيل بأولئك الذي يقيمون إقامة عابرةً في المكان ومن ثَم تجدهم يُسهِبون بالكتابة عن المكان من دون دراية بالتفاصيل الثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية التي يتحتم على هؤلاء معرفتُها والتعمُّق بها قبل الشروع في الكتابة. هذه الالتقاطة من فرنيل تعكس مدى تحرِّي فرنيل المصداقية فيما يقول، وفي الوقت نفسه يضع يده على الجرح فيما يتعلق بالخسائر الكبيرة التي تكبَّدناها على أثر تلقي نصوص هشَّة وعابرة (تصل إلى درجة التلفيق) من بعض الرحالة الذين كتبوا نصوصًا طويلة عن شبه الجزيرة العربية وهم لم يُقيموا إلا مدَّة زمنية قصيرة جدًّا. وهنا يجتهد فرنيل بتفسير وتحليل هذه الظاهرة على طريقته.

يقول فرنيل في بداية وصفه حالة شبه الجزيرة العربية في عامي 1837 و1838 "غادرت جدة في بداية إبريل من عام 1838 بعد أن التقيت بكثير من العرب والبدو والأجانب(...) رأيت في جدة عددًا هائلًا من الإبل ومن الذباب ومن النمل، ومرة أو مرتين رأيت ملايين الجراد، رأيت منازل نظيفةً إلى حد ما، ومُشيَّدة بشكل جميل، مع طراز خارجي راقٍ وجميل وطرازٍ داخلي

مزيَّن بالخشب المنحوت، ولكنها منحوتة بإتقان مدهش، مع أبــواب ولوحــات وشرفات ورواشين ومشربيات تمنيتُ لو أني أضع أحد هذه المباني على ظهر إحدى السفن وأحملها إلى ميناء لوهافر[1] le Havre عبر باب المندب. رأيتُ سماء صاخبةً وسهـولًا جميلـة لا ينقصها سوى أن تكتسي باللون الأخضر، برغم صلوات الاستسقاء المتكررة(...). رأيت في جدة أناسًا بلباس مختلف، وأخلاق مختلفة، وطوائف مختلفة. تحدثت معهم وشيَّدت معهم بعض العلاقات، وكنت سعيدًا جدًا بوجودي في جدة (...). أكلــت (أوزة برية) رائعــة، وكركند، وسلطعون. وأسماكًا من جميع الألوان والأنواع. أكلت سفرجلًا رائعًا، وعنبًا من الأرض الموعودة.

الحاصل أنني قمت بعمل مجموعة من الدراسات حول عادات هذا البلد ولم أشيد من كل هذا ما يمكن أن نسميه مقالًا، على الأقل أثناء إقامتي في جدة. وهذه حقيقة تستحق التأمُّل والتحليل؛ إذ إنه غريب على حالتي ووضعي فأنا بطبيعتي عاشق للتواصل. إن الأشخاص الذين أقاموا لمدة طويلة في المشرق وعايشوا حياة المشرقيين نادرًا ما يشعرون بالحاجة إلى الكشف عن كُنه هذه الحياة للأوروبيين. ولكن في المقابل نجد أن الرحالة الذي يمرُّون مرورًا عابرًا على بلاد المشرق يقومون بوصف كل ما

(1) ميناء في شمال فرنسا.

تقع عليه أبصارهم، بل إنهم يرددون كل ما يقع على مسامعهم ويؤلفون كتبًا حول ذلك. ولا يوجد سائح واحد لا يعود بمدونة مليئة بالملاحظات الغريبة.

وهذا الاختلاف يمكن تفسيره بما يلي:

عندما يمكث الإنسان في المشرق بعض الوقت، وعندما تتلاشَى حِدَّة الشعور بالغربة، وعندما ينعتق من مشاعر الدهشة والإعجاب والاشمئزاز؛ يشرع في تبادل الحديث بطريقة ودية مع سكان البلد، على إثر ذلك ننخرط شيئًا فشيئًا في نظام للأشياء مختلف جدًّا عن السابق، لدرجة أننا نصبح عاجزين عن أن نترجم أو ننقل إلى لغتنا الأم المشاعر الجديدة التي نحسُّ بها والأحكام التي نطلقها. وكلما استمتعنا بهذا الوجود الجديد شعرنا بيأس كبير تجاه قدرتنا في نقل ذلك للمجتمعات الغربية. (صـ10).

الرحَّالة العابر يكون قادرًا على أن يمنح مواطنيه فكرة متماسكة عن كل ما تقع عليه عيناه، وعن كل ما يشعر به؛ لأنه يرى ويحسُّ على الطريقة الأوروبية، ولكن الرحَّالة الذي يقيم بالمكان يشعر ويحسُّ بالأشياء بطريقة مختلفة. والسبب في ذلك يعود أولًا إلى تلاشي فكرة الانبهار بالجديد(...). في المشرق كل رجل تظهر عليه علامة (étiquette) ولهذه العلامة عند المشرقي معانٍ ودلالات. وهناك ما هو أكثر من ذلك طريقة المشرقي في الكلام تتغيَّر عشر مرات، إذا كان يجب عليه توجيه الكلام إلى

عشر شخصيات من عرقيات مختلفة أو مهن مختلفة، ليس هذا بسبب درجة الاحترام التي يُكِنُّها لهذه الأمة أو تلك، أو لهذا الفرد أو ذاك، ولكن لأن الكلمة بحد ذاتها تتغير قيمتها (معناها) بمجرد أن يتلفظ بها أناس مختلفون، بمعنى أن ما قد يكون بسيطًا ومقبولًا لدى إنسان تركي؛ يجده البدوي بشعًا وبغيضًا وغير مقبول. في كل لحظة يجب تغيير ميزان الكلام" (صـ 10).

ثم إنه يجدر القول إن الأذواق تتغيَّر مع التجربة في المشرق. فعلى سبيل المثال، تعجبني اليوم كثيرًا الموسيقى العربية، ومع ذلك لا يمكنني أن أنسى أنني كنت لا أطيقها قبل ثماني سنوات. كيف أقنعكم أن الموسيقى العربية شجيَّة آسرة، وكيف أنه لو قُدِّر لـ مايربير[1] Meyerbeer أن يقضي معنا ثلاث سنوات أو أربع، أي فائدة عظيمة سوف يجنيها؟

أكتفي بمشاهدة وملاحظة المظاهر الخارجية لمدينة جدة قبل أن أتوجَّه لمدينة ينبع، وهنا أود أن ألفِتَ انتباه الفنانين والمبدعين حول نوع من الفنون، يستطيع جميع أولئك الذين وهبهم الله مَلَكة حب الفنون الجميلة الاستفادة منه. (صـ 11). لم أشعر يومًا بهذا الجمال والقيمة إلا في إقامتي في مدينة جدة، وأتحسَّر لكوني لست

(1) موسيقي وملحِّن أوبرا ألماني شهير جدا، هناك من يضعه فوق موزار. وجد شهرته الكبيرة في باريس مع الألحان الثلاثة الكبرى التي ألفها في أوبرا باريس.

متخصصًا في الفن التشكيلي والنحت. إن الفنانين عندنا لا يرون الشيء الحاسر إلا بطريقة عابرة، حتى في إيطاليا يدفعون المبالغ الطائلة نظير دراسة أحد النماذج الفنية العارية. على فنانينا أن يأتوا إلى جدة في موسم الحج وهنا من دون تكاليف باهظة سوف يشاهدون أجمل معرض فني مكوَّن من أشكال وألوان الأعراق الساميَّة والقوقازية والهنود والأفارقة ظاهرًا أمام أعينهم.

مناشف مربوطة حول منطقة الخصر وقطعة قماش بيضاء مسدلة على الظهر هي الملابس التي يُسمح بها للحجاج الذين يمرُّون بمدينة جدة. عدم وجود شيء على الرأس هو أحد شروط الإحرام، وبما أنَّ جميع الرؤوس خالية من الشعر تمامًا وهذه (فرصة سانحة) لعمل دراسات في علم الجماجم (اختصاص القحف) والتي يستحيل عملها في مكان آخر غير هذا التجمع. وأخيرًا إن التنوع والنبل وغرائبية الملبس التي نشاهدها في شوارع هذه المدينة (جدة) سواء قبل إحرام الحجاج أو بعد، ما هي إلا تحصيل حاصل مقابل الميزة العظيمة والفريدة من نوعها التي تكمُن في رؤية جميع أعراق العالم القديم، ترتدي الملابس نفسها وتظهر كما خلقها الخالق، وتمارس سلوكيات طبيعية باحتشام، والذي يعدُّ بحد ذاته سلوكًا طبيعيًّا؛ لأنه مهما فسدت أخلاقيات المشرقيين فإنه يمكنهم إعطاء أمم أوروبا جميعها دروسًا في اللياقة (صـ12).

ولكي لا يقع خطاب فرنيل عن المشرق في التناقض نجدُه بعد هذه الرؤية للحج باعتباره نموذجًا إنسانيًّا فرصةً سانحةً للتعمُّق في جوهر سمات الإنسان البشري المُلغِز، نجده يحاول أن يستعيد تجربته السابقة في مصر على مستوى السلوك الأخلاقي والتعامل اليومي في الحياة اليومية. يرى فرنيل أن البذاءات التي واجهها من البعض أثناء إقامته في القاهرة لا تنتمي إلى الحضارة الإسلامية، وإنما أصلها قديم جدًّا يعود سابقًا للإسلام. وهنا يطلق فرنيل رأيًا مثيرًا للجدل وهو "من السهولة بمكان أن يغير الإنسان دينه، لكن من العسير أن يغير أخلاقياته" (صـ 12).

***

ينتقل فرنيل بعد ذلك إلى تأمُّل غير عادي لنباتات البحر الأحمر التي وقف عليها على ساحل جدة. يرى أنها ليست طحالب ولا فوقَس وأن ما هو موجود ليس له علاقة بما يطلق عليه في أوروبا بـ (أعشاب البحر)؛ إذ إن الأمر في البحر الأحمر يتعلق بنوع من القصب أو كما يقول: "إن شئتم نوع من القصب يشبه أعشاب النهر. وهي نباتات تتمتع بإنتاج أزهار بشكل منتظم".

وعن سبب تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم يرى فرنيل أن السبب في تسميته بهذا الاسم قد يعود إلى الشعوب الحميرية التي تسكن على ضفاف البحر الأحمر. وأن هناك صلة بين كلمة (أحمر) التي تتضمنها كلمة حِمير وتسميته بهذا الاسم. بحر "العِرق

الأحمر" أو الشعوب ذات اللون الأحمر التي تسكن على ضفاف هذا البحر. باعتبار أن العِرق الأحمر كما يشير فرنيل يحيل على الأعراق النبيلة مقابل العِرق الأسود.

***

يتوقف فرنيل في هذا النص وبنوع من الإسهاب مشيرًا إلى أنه يستثمر الفرصة التي مُنحت له للنشر في المجلة الآسيوية للتعبير عن بعض أفكاره. يتوقف فرنيل عند تاريخ أقوام عاد وثمود بما أن هذا التاريخ يمثل الحد الفاصل لما يعرفه العرب عن تاريخهم كما يقول. يصرح فرنيل بالحنق الذي لطالما شعر به لعدم وجود هذين الاسمين في الإنجيل رغم قناعته بوجودهما، وأنه أخيرًا يبدو أنه قد وجد أثرًا لذلك (صـ 37).

يقول فرنيل: إنه بحسب الإنجيل فإن (عادة) هي زوجة (عيصو) وهي كنعانية. في الوقت نفسه وبحسب الإنجيل أيضًا نلاحظ أن الإنجيل يقدم لنا (عادة) على أنها زوجة لامك (والد النبي نوح) أي قبل الطوفان. وبهذا فإن (عادة) تكون قد أنجبت ولدًا خرج من سلالته أولئك الذي يسكنون تحت الخيام (صـ 39).

يشير فرنيل عما يمكن أن يُستفاد من هذه المعلومة بما أنهم قد هلكوا مع الطوفان. يرى فرنيل أن الأمر يعود إلى حالة المؤرخين العرب الذين -على حد قوله- لم يستسيغوا فكرة أن تندثر السلالة

العربية ولا يبقى لها أثر، لذلك عمد هؤلاء المؤرخون إلى إدراج جُرْهُم الذي يتحدث العربية والتي سوف يُسميها فرنيل لاحقًا عربية حِميَر ضمن الناجين من الطوفان ممن على ظهر سفينة نوح. بالنسبة لثمود يشير فرنيل إلى أن كتب الرحَّالة القدماء مثل أجاثارشيدس وديودور القنصلي ومعظم المراجع تتفق على وجود قوم ثمود وتضعهم وفقًا للسلم التاريخي قبل قوم عاد. ويرى أن الاختلاف كل الاختلاف يدور حول قوم عاد. لكن في نفس الوقت يقول فرنيل إن ما هو جدير بالملاحظة أن كلمتي عاد وثمود يحيلان إلى نفس المعنى في اللغة العبرية، والكلمتان تحملان معنى الزمان والديمومة، وانطلاقًا من قناعة فرنيل -كما يكرر في مواطن عدة في النص- أن اللغة العبرية هي لغة وسطى بين اللغة الحِميَرية (لغة عاد) وبين لغة القرآن، يتساءل بقوله: أليس من الممكن أن يكون العبرانيون قد خلطوا بين هذين الاسمين ووضعوهم تحت نفس المسمى؟ ويتساءل أيضًا عمن يمكن أن يكون أقدم شعوب شبه الجزيرة إن لم يكن ذلك الشعب الذي يسكن حتى هذه الساعة في جنوب الجزيرة العربية والذي لا يزال يفتخر بأنه يتحدث لغة عاد. إن هذه اللغة- كما يرى- ليست لغة ميتة، والشاهد على ذلك حضورها في المواقع الأثرية المكتشَفة حديثًا في منطقة حضرموت (ص: 46).

***

فرنيل مغرم بتأمل سلوكيات الحياة اليومية وبخاصة ما يمكن أن يُطرح للنقاش حول الأبعاد الأخلاقية لهذه الممارسات السوسيولوجية. لا يكاد يخلو نص من نصوص فرنيل من استحضارٍ لهذا البُعد الأخلاقي في الحياة اليومية. يذكر فرنيل حادثة وقعت أثناء وجوده في البحر في رحلتهم من السويس إلى جدة. يروي أنه وهم في اتجاههم نحو المرسى وأثناء ما كان قائد القارب يجدف بكامل قوَّته كان ابن هذا القائد مستلقيًا في مؤخرة القارب، وفجأة سقط هذا الطفل في البحر من دون أن نشعر بذلك.. ما عدا الشاب سليمان الذي اندفع مسرعًا إلى البحر وأمسك بالطفل من دون أن يتعرَّض لأي نوع من الأذى، حتى أصبح الطفل بعد لحظات بين يدي والده. (ص47).

يعلق فرنيل على هذه الواقعة بقوله: إنه برغم مرور عام على هذه الواقعة فإنه لا يزال يتذكرها بإحساس سعيد جيَّاش، بخاصة مشهد لطفل وهو في أحضان والده. يسوق فرنيل في الوقت نفسه تعليق صديقه ورفيقه في الرحلة السيد بوتا[1] Botta. يروي بوتا

(1) بول إميل بوتا Botta صديق مقرب من فرنيل، دبلوماسي فرنسي، وصل إلى الإسكندرية في عام 1837 (وهي السنة التي صاحب أثناءها فرنيل إلى ينبع)، أرسله متحف التاريخ الطبيعي في باريس لجمع المنتجات الطبيعية من ساحل شبه الجزيرة العربية واليمن.
في عام 1842، عُيِّن قنصلًا في الموصل، وهو المنصب الذي أنشأه لويس فيليب لإميل بوتا. في عام 1843 إلى عام 1844 اكتشف في خورساباد، على =

لفرنيل أنه في رحلة سابقة شاهد أحدَ الركاب (البالغين) يسقطون من القارب في البحر والناس ينظرون إليه من دون أن يُقدِّم أحدٌ له أدنى طرف من المساعدة والعون. اكتفى الجميع بقراءة جزءٍ من القرآن عليه، برغم أن كل الظروف تسير باتجاه أن بوسعهم إنقاذه. لقد حدث كل هذا بهدوء وتسليم وبأعلى درجة من درجات عدم المبالاة. (ص47).

يعود فرنيل بعد سرده لرواية بوتا إلى موقف الأب (ربان القارب الذي أنقد الشابُّ سليمانُ ابنَه) ويقول إنه لا يشك لحظة بفرحة هذا الأب بعودة ابنه إلى أحضانه، لكن اللافت كما يرى هو موقف الأب من الشاب سليمان؛ إذ إن هذا الأب اكتفى (مع المجموعة التي توجد على ظهر القارب) بالتلفظ وبترديد "الحمد لله" و"لله الحمد". في الوقت نفسه الذي لم يظهر على سليمان أنه ينتظر أي نوع من الشكر. يتساءل فرنيل عن هذا الموقف بقوله: "لماذا لم يشكر الأب الشخص الذي أنقذ الابن؟!" يرى فرنيل من منطلق معرفته الموسوعية (الواثقة) أنه في هذه البلاد في حال وجد الإنسان نفسه يتعرَّض لخطر قاتل، وشاءت

= الضفة الشرقية لنهر دجلة، ركن قصر سرجون الثاني، الذي يعتقد أنه أطلال نينوى. قام (بالإشراف) على (تحميل) أفضل المنحوتات والنقوش المحفوظة في هذا الموقع ونقلها عبر نهر دجلة إلى البصرة، ثم إلى ميناء لوهافر في شمال فرنسا، لإنشاء أول متحف آشوري في أوروبا في باريس عام 1847. بحسب المصادر، جميع هذه التحف محفوظة الآن في متحف اللوفر.

إرادة الرب أن تستعين بإنسان يخلصك من هذا الخطر، فإنه وبمجرد أن تشكر هذا الإنسان الذي خلصك منه فإنك ترتكب معصية كبيرة والسبب يعود إلى أن أفعال الخير متعلقة بمشيئة الرب. ذلك الرب كما يقول فرنيل "الغيور" الذي لا يقبل أن يتقاسم الشكر والحمد معه أحد. وانطلاقًا من هذا المبدأ كما يرى فرنيل فإنه يجب علينا ألا ننتظر إطلاقًا من أي مسلم أدنى شعور بالشكر والعرفان نظير أي عمل خيِّر أو مساعدة نقوم بها تجاهه، مهما كان حجم هذه العمل. والسبب يعود -كما يقول- إلى أنك بالنسبة لهذا الإنسان الذي عملت له الخير مجرد أداة عمياء سلبية لما يخبئه القدر. ويصل هنا إلى حكمه الأكثر شذوذًا عندما يقول: "لم يخترع الإنسان دينًا أكثر قسوة يعمل على تجفيف القلب"، مضيفًا: "قلتها وأقولها الآن: نسيان الرب ومحبة الرب الخالصة لهي أفضل ألف مرة من دين بهذا الشكل... وإني لأهنئ من أعماق قلبي المسلمين الذين يسيرون اليوم بخطى ثابتة نحو الكفر (عدم الإيمان بالدين)"(ص48).

ألمحنا أكثر من مرة إلى العلاقة المأزومة لفرنيل مع الإسلام، برغم التحولات التي طرأت على موقفه هذا كما يشير البعض في نهاية حياته وتبنِّيه بعض السلوكيات الإسلامية وما رأينا من إنصاف بحق فريضة الحج وغيرها من الشعائر الإسلامية. حول هذه النقطة على وجه التحديد ينطبق على فرنيل المقولة الإسلامية نفسها من أن "الناس أعداء ما جهلوا".

إن خطاب فرنيل، على إثر ما وقفنا عليه من أحكام جائرة وجريئة (حد الوقاحة) في بعض الأحيان هو خطاب جاهل بالإسلام. يبدو أن فرنيل حكم على الإسلام من خلال ممارسات بعض المسلمين وهذا لا يستقيم أبدًا. حالة علاقة الافتتان التي سكنت علاقة فرنيل مع عصر ما قبل الإسلام وانسجامه مع الشنفرَى وبعض الشخصيات الأخرى جعلته ينحو منحَى ضرب الإسلام بالصورة الذهنية والأخلاقية التي حاول تكريسَها في نصوصه ونقلها للقارئ الغربي. ولا بد من القول هنا إنه يُحمَد لفرنيل إعلانه المسبق لمواقفه السياسية والأيديولوجية والثقافية. فرنيل خدم الثقافة العربية بالمعنى الأنثروبولوجي لكلمة ثقافة (اللغة، العادات، التقاليد، التاريخ،...) ولكنه بقصد أو بغير قصد قد يكون من الذين مهَّدوا الطريق نحو قراءات مُغرِضة (مسيئة) للإسلام ومصادر تشريعه.

***

من أهم ما اتصف به فرنيل هي قراءاته الموسوعية في التاريخ. فهو يكاد يكون اطَّلع على معظم الكتب والمصادر التي تطرَّقت إلى تاريخ وجغرافيا شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر. توقف واستشهد كثيرًا بـ أجاثا رشيدس وبديودور الصقلي وسترابون ودانفيل وفلهليم جيزنيوس وغيرهم من الذين سبقوه للمنطقة. لقد عمد فرنيل بعد وجوده في المنطقة إلى المقارنة بين ما وقف

عليه وما ورد في هذه المصادر؛ فركز على المصادر الإغريقية وأشار بعد أن مارسَ تحققًا علميًّا وعمليًّا لافتًا إلى ما اعترى هذه المصادر من مغالطات وأخطاء تاريخية وجغرافية.

بعد أن وقف فرنيل مباشرة على أرض الواقع وانتقل من التمثلات التي ترسخت في ذهنه عن المنطقة إلى واقعها، يقر بأن "الغرائبي عزاء الجهلة" انطلاقًا مما يرى من أن معظم سرديات الإغريق والرومان حول الأشياء القديمة غالبًا ما تدخل في عالم الخرافة، ومليئة بالمبالغة. الغرائبي عزاء الجهلة لأنه لا يقدم -كما يرى- سوى علف ثقافي يبحث عنه الإنسان عندما يمتلئ بطنه، ومن هنا يمكن القول إن الخطأ والصواب يُلبِّيان ما تحتاجه طبيعتنا البشرية. ويرى فرنيل أن هذا من الممكن أن يذهب بنا بعيدًا من زاوية أن الخطأ قد يستحوذ ويسيطر على الصواب بسبب تراكماته. (ص59).

****

في كل مرة يتوقف في أية منطقة من المناطق العربية (الساحلية وغيرها) يحاول فرنيل أن يتأمل حال وواقع الصناعة والمنتجات الصناعية. يطلق تعجُّبه كيف أن العلاقة مع الصناعة والإنتاج الصناعي هي مأزومة إلى هذا الحد من منطلق تاريخ العرب الحافل بازدرائهم العمل اليدوي والحرف اليدوية وحتى الزراعية. يرى فرنيل أن شبه الجزيرة العربية ليست أقلَّ البلاد

صناعةً بل إنها بلاد ضد الصناعة، بلاد -كما يقول- أعلنت الحرب عليها بلا هوادة. على خلاف -كما يقول- بلدان الشرق الأقصى التي كلما تقدمت إليها وجدت الناس يعملون وينتجون ما يحتاجون إليه. ويحاول فرنيل أن يصعد في تساؤل ينسجم تمامًا مع فكر فرنيل والتقاطاته، وهي الحيرة الكبرى واللغز الكبير الذي صاحب عدم قبول قربان قابيل الذي تقدم بأجود ما لديه من المحاصيل الزراعية. يقول: لماذا لا أحد يجيبنا عن الذنب الذي اقترفه قابيل لكي لا يُتقبل منه القربان؟ (ص73).

*****

فرنيل مسكون بربط قراءاته بمشاهداته ومن ثَم الحكم عليها. من ضمن ما استرسل حوله فرنيل في هذا النص هي النصوص التي كتبها الإنجليز عن المنطقة والتي من المفترض أن تمهِّد للرحالة والزائرين علاقتهم بالمنطقة. بمعنى أن تلك الكتب التي كتبها الرحالة والمستعربون الإنجليز عن المنطقة والتي تتضمن وصفًا للمنطقة يتخلله كمٌّ كبيرٌ من النصائح والإرشادات لمن يرغب الحضور إلى منطقة ساحل البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية. من المواقف التي يرويها فرنيل ما كان يحمل من توجُّس وخيفة كبيرة، على إثر ما قرأه في كتب الإنجليز عن سكان ساحل البحر الأحمر. ومما حذر منه الإنجليز بشدة كما يقول فرنيل قبيلة حرب التي وصفها الإنجليز بأوصاف قاسية. يقول فرنيل إنه حين

رسا القارب في ينبع لم يكن يفكر إلا بكيفية التعامل مع أفراد قبيلة حرب العملاقة التي تمتدُّ على مساحة هائلة بين جدة والمدينة. يقول فرنيل بعد تجربته في التعامل مع بعض أفراد القبيلة في ينبع والمناطق القريبة منها: "الذي أستطيع أن أؤكده بضمير مرتاح أننا نستطيع أن نسافر ونتنقل في مناطقهم [قبيلة حرب] من دون الحاجة للسلاح أو الحماية، ومن دون الحاجة إلى شخص من نسل الأشراف يقوم بمصاحبتك. بإمكانك أن تعطي وتأخذ، وتقبل وترفض، وتبيع وتشتري، وتدوِّن ما تشاء، وأن تعبر عما تشاء على امتداد الطريق، أن تقتني ما تشاء من الأعشاب والأحجار وأن تعود سليمًا معافًى إلى المكان الذي قدمت منه. وهذا بالضبط ما فعلته أنا، ولا أظن أنني نجوت من مخاطر كبيرة في هذه الرحلة... قد يكون السبب في حالة التوتر بينها وبين الإنجليز أن الإنجليز لم يتعاملوا إلا بلغة الرصاص مع هؤلاء المحاربين الأقوياء" (ص86).

يتحدث فرنيل عن اللقاء الذي جمعه بطبيب حاكم المدينة خورشيد باشا في سبتمبر 1837 وما يراه هذا الطبيب من أن الطريق الذي يسلكه في محاذاة البحر الأحمر وهو قادم من المدينة باتجاه ينبع هو الطريق نفسه الذي سلكه ووصفه إليوس غاليوس[1] إبَّان

(1) حاكم مصر الروماني (26-24) قبل الميلاد، تزعم حملة لضم مملكة سبأ لجعلها ضمن الإمبراطورية الرومانية نزولًا على أمر الإمبراطور أغسطس، =

عودته من اليمن. نقل هذا الطبيب لفرنيل أن خورشيد باشا أخبره بوجود نقوش قديمة على بعض الصخور في منطقة بدر وأن خورشيد باشا يؤكد أنها نقوش مكتوبة باللغتين الإغريقية واللاتينية (رغم أن خورشيد باشا -كما يقول الطبيب- لا يعرف هذه اللغات وأنه ليس متأكدًا من شيء، وأنه مغرم بتقديم نفسه على أنه يعلم كل شيء، وأنه دائمًا يتركه على غِيِّه).

يشير فرنيل إلى أنه اقتنص هذا الخبر وطلب من الطبيب أن يحدد له المكان. وجهَّز نفسه لقضاء عدة أيام في هذه المنطقة لاكتشاف ما ذكره خورشيد باشا. بدأ رحلته بلقاء مع حاكم ينبع (درويش باشا)، وكان مما سهل له مهمة طلب العون كالراحلة والدليل (المرشد) ست قنينات من العَرَق الفاخر قدمها له.

عُيِّنَ الشريف سعد مرشدًا ودليلًا لفرنيل في رحلته إلى المدينة ومنطقة بدر على وجه التحديد. ويصفه فرنيل بأنه من الرجال الذين يتمتعون بجَلَد خارق على مواجهة الظروف القاسية. يروي فرنيل هذا المشهد اللافت أثناء زيارته للمكان الذي يعيش فيه الشريف سعد: "كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا عندما رأيت من بعيد في مجموعة من الأشجار الصغيرة خيمةً بائسة تجلس في ظلها سيدة محتشمة للغاية، ومحاطة بعدد من الأطفال.

= وكما هو معروف كانت نتائج هذه الحملة كارثية نتج عنها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد من دون أن يصل إلى مراده.

هذه العائلة هي عائلة دليلي الشريف سعد. بعد أن نزلت من راحلتي استجبتُ لدعوة الشريف سعد، الذي طلب مني الجلوس بجانب زوجته. عانينا كثيرًا من إسكات الكلب الذي لم يرضخ لأوامر سيده. وكانت هناك فتاة صغيرة بعمر ثلاث سنوات أو أربع، أجهشت بالبكاء بأعلى صوتها. فسكتت بعد أن ناولتها قطعة من البسكويت وحبات من الزبيب. برغم أن هذا السلوك قديم في المشرق، إلا أنني أصبت بدهشة كبيرة للمعاملة البسيطة والراقية التي عاملتني بها هذه السيدة باعتباري ضيفًا لزوجها. إن الحياء الأحمق، والارتباك، والغرور باعتبارها سلوكيات رائجة في شمال أوروبا هي سلوكيات غير موجودة ألبتة في البلدان الحارة. بعد ربع ساعة وبعدما ارتويت مما قدم لي من الحليب، عاودت الفتاة البكاء، بادرت هذه المرة أن أمنحها قطعة معدنية (خمسة قروش) وعندما رأتها الفتاة تغيَّر حالها رأسًا على عقب. فبمجرد أن وضعت قطعة النقود بين أصابعها، أظهرت مقابل ذلك أجمل ابتسامة طفولية يمكن أن تظهر على ثغر طفل. إن حالة الانتقال من البكاء والحزن إلى الفرح والنشوة كانت فوريَّة (في اللحظة نفسها)، مما أثّر في مشاعري ولامس قلبي. من ثَم يمكن التساؤل: هل يوجد جاذبية فطرية بين قلب الإنسان والمال؟! كيف يمكن لطفلة تربَّت في أكثر الصحاري توحُّشًا أن تشعر بالبهجة إلى هذا الحد عند اقتنائها قطعة نقدية؟! ألا يمكن أن يكون حب المال على الأقل شيئًا فطريًّا؟!" (ص98– 99).

يذكر فرنيل اللقاء مع الشريف حاكم وادي بدر ومنطقة الصفرة. الشريف عتيق هو الذي أرشد فرنيل إلى المكان الذي أخبر خورشيد باشا أنه يوجد به نقوش وكتابات إغريقية. يقول إن الشريف عتيق أجابه عندما سأله عن السبب في رغبته الوقوف على هذه النقوش بأنه يرغب في الاطلاع على كتابات أجداده الرومان برغم أنه -كما يقول- لا يعتقد أنه يوجد دم روماني في شرايينه. (ص99).

وفي لقائه مع علي بيك قبل أن يتوجَّه للاطلاع على نقوش منطقة بدر، يروي فرنيل كيف أنه ذكر لعلي بيك أنه بيك ابن بيك وذلك على طريقة قناصل فرنسا الذين لا يستنكفون عن تقمُّص ألقاب ليست لهم، يضع فرنيل بين قوسين هذه العبارة (but this between us) إشارة إلى ممارسات الكذب والتلفيق التي يمارسها القناصل ليضعوا لأنفسهم مكانةً اجتماعيةً كبيرة، ويحصلون بها على الاعتراف الاجتماعي من منظور عربي وتركي. (ص114). وفي هذا اللقاء يشير فرنيل إلى ما يتمتع به علي بيك من قدرٍ عالٍ من الثقافة، ولذلك تفهم مباشرة نزعة الفضول التي حرضت فرنيل على الذهاب إلى المنطقة وتكبُّد عناء السفر إليها. يشير فرنيل إلى أن علي بيك نصحه أن يزور قلعة (قصر) النصراني (le château du chrétien) كما يشير إلى أن بوركهارت زار المنطقة قبله بصفته مسلمًا، وأن فرنيل زارها بصفته مسيحيًّا ويعتقد أنه أول مسيحي يكون قد زارها وهو محتفظ بعقيدته المسيحية.

يقول فرنيل إن بوركهارت تحدث عن تفاصيل كثيرة جدًّا، وعن الممارسات الدينية بالتفصيل في المدينة ومنطقة بدر، وأنه لم يرغب في تكرار هذه التفاصيل، إلا أن الصدفة كما يقول شاءت أن الأشياء التي كنت أبحث عنها وعن الوقوف عليها لم تكن أبدًا في طريق بوركهارت. (ص117).

يتحدث هنا عن قلعة النصراني ويشير إلى أن الأمر يتعلق بمرقب (مرصد) يقبع في الجزء الغربي بين منطقة بدر والسهل الكبير الذي يمتد حتى البحر. وهو عبارة عن قبة مدمَّرة تعتلي القمَّة تحيطها حاوية حجرية مع وجود حروف محفورة بواسطة صوَّان على بعض الأحجار ولكنه عرف بعد ذلك أن الأمر يتعلق ببعض الوسوم التي نشاهدها على أجساد الإبل.

****

يتحدث فرنيل في هذا النص بإسهاب عن الغطرسة المُفرِطة لحكّام وولاة الدولة العثمانية في منطقة الحجاز، واصفًا وقاحةَ ودناءةَ هؤلاء الحكام وازدراءهم للعرب وشعورهم المزيف بالفوقية. وفي كل مرة يلتقي فرنيل واحدًا من هذه الشخصيات ينقل للقارئ الغربي مدى العلاقة المأزومة والأحكام القاسية التي يُطلقها العثمانيون على العرب. ويُقرُّ أنه على مَرِّ التجربة تأكد من حالة الكراهية المتبادلة بين العرب والأتراك. (ص 129).

يلفت فرنيل في هذا النص أيضًا إلى سلوك مفصلي على قدر كبير من الأهمية شكَّل حجرَ الزاوية في مقاومةِ ورفْضِ الوجود العثماني، ومحاصرة هذا الوجود في زاوية محدَّدة جعلته غير قادر على إقناع السكان بوجاهة وشرعية حضورهم. الموقف الذي يتحدث عنه فرنيل بشكل لافت هو رفض العرب اللغة التركية ورفض تعلُّمها وازدراؤهم الشديد لها. يرى أن هذا الرفض متعلق بموقف أخلاقي وحضاري تبنَّاه العرب للتعبير عن رفضهم لهذا الحضور. لقد لعب هذا السلوك اللغوي الرافض للغة التركية ولغة (الغازي) بالرغم من أنهم يعلمون أن أسرع طريقة للتقرُّب للأتراك والاندماج معهم هي تعلم لغتهم. (ص127).

****

دور فرنيل في (قضية) مذكرات فتح الله الصايغ ورحلته إلى الدرعية[1]

نستحضر هنا (قضية) مذكرات فتح الله الصايغ والجدل حول صحتها ومضامينها بين المستشرقين، وبخاصة حول زيارة منطقة الدرعية.

فتح الله ولد أنطوان الصايغ اللاتيني[2]، شاب سوري ولد في مدينة حلب في حدود (1790)، وهو صاحب مذكرات أثارت بعد صدورها جدلًا لافتًا في أوساط المستشرقين. دارت أحداث

---

(1) بعد الانتهاء من تحرير هذا الجزء، وقعت على عنوان كتاب يتناول الرحلة نفسها من تأليف محققَيْن قديرَين: الدكتور محمد خير البقاعي، والدكتور عبد الله العسكر. لا بد من القول إن ما حُرِّر هنا اعتمد بشكل كبير على كتاب الدكتور يوسف شُلحُد، وأدعو القارئ إلى العودة للاستزادة والمقارنة بين تحقيق الدكتور شلحد والدكتورَيْن البقاعي والعسكر. (وهذا ما سوف أفعله -إن سمحت الظروف- لاحقًا).

(2) كما يسمي نفسه في بداية مذكراته (المخطوطة المحفوظة في باريس). كلمة (اللاتيني) هنا تعكس -في تصوري- مدى رغبة فتح الله الصايغ في التعبير عن انتمائه إلى الثقافة المسيحية اللاتينية، وإلى استمالة القارئ والمتلقين الغربيين سواء من الرحالة أو غيرهم، وهذا -على حد علمنا- ما لم يُعلِّق عليه الدكتور شلحد.

رحلته في بادية الشام وخارجها أي في بعض أنحاء الجزيرة العربية. يقول يوسف شُلحُد[1]: "كان فتح الله الصايغ شابًّا لم يتجاوز العقد الثاني من عمره حين اتصل به رجل من الإفرنج، في متوسط العمر يدعى تيودور لاسكاريس وطلب منه أن يعلمه اللغة العربية. وكان ذلك بمدينة حلب 1809، وهي وقتئذ مركز تجاري هام ومحط قوافل الهند والأناضول. وبما أن فتح الله المذكور كان يميل إلى التجارة، ويجهل مهنة التعليم، فإنه قبِلَ هذه المهمة، لأنه كان صفر اليدين على إثر صفقة تجارية خاسرة في جزيرة قبرص. فرضي بالشروط السخية التي عرضها عليه لاسكاريس، لا سيما بعد أن عرف أن المذكور من كبار الإفرنج

(1) يوسف باسيل شُلحُد (1919-1994) عالم جهبذ متخصص في علم الاجتماع الديني والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا "يكاد شلحد مؤسِّس علم الاجتماع الدينيِّ العربيِّ أن يتفرَّد في مجال تخصصه. كان سبَّاقًا زمنيًّا بين العلماء العرب في دراسة المقدَّس ضمن بيئته الإسلاميَّة. اتَّخذ من الحياديَّة نهجًا معرفيًّا مبتعدًا عن الأطر الأيديولوجيَّة والإسقاطيَّة في مقاربة الظاهرة الدينيَّة. لا يعرف بعضُ الجيل الجديد من المهتمين بالأبحاث الإثنولوجيَّة والأنثروبولوجيا مَن هو يوسف شلحد. لقد عالج قضايا إسلاميَّة معقَّدة، فتناول الأضاحي عند العرب وبُنى المقدَّس والقبائل والعشائر وعلم اجتماع الإسلام ومسائل أخرى". (منقول من موقع "إدراك" للدراسات الإنسانية: يوسف شلحد.. رائد علم الاجتماع الديني وبُنى المقدس).
وأميل مع كثيرين غيري إلى أن منتج شلحد المعرفي لـم يُستفد منه حق الاستفادة، ونحتاج إلى مقاربات أخرى لكتبه تليـق بعمقها الفكري والمعرفي.

وأشرافهم، من أسرة بيزنطية عريقة اشتهر منها عدد من الملوك والعلماء... وبعد مضي ستة أشهر تعلم فيها لاسكاريس قليلًا من العربية قراءةً وكتابةً، عرض على فتح الله أن يقوم برحلة في أنحاء البلاد السورية، سعيًا وراء أرباح التجارة، وأعطاه الأموال لشراء البضائع التي تصلح لأهل البادية، وشرط عليه أن يطيعه طاعة عمياء، ولا يخالفه في شيء. فقَبِل الصايغ هذه الشروط وأخذ يعد أهبته للسفر.

غادر لاسكاريس وترجمانه حلبَ إلى سمرين، يوم الخميس الواقع 18 شباط 1810، على طريق القوافل، ثم قصدا معرة النعمان، ومنها إلى خان شيخون، ثم إلى خان حماة حيث أمر الحاكم سليم العظم بسجنهما بتهمة التجسس. ولكن البرطيل (الرشوة) أنقذهما سريعًا من الزنزانة، فتابعا سفرهما إلى رستن فحمص. وطابت لهما الإقامة في هذه المدينة فبقيا فيها إلى نهاية الشتاء.

وكان الصايغ على جهل بغايات معلمه السياسية، ويتساءل ما هو مصير البضائع التي معهما، لأن لاسكاريس كان يمنعه من عرضها في الأسواق. ثم اتضح له شيئًا فشيئًا أن معلمه يرمي إلى هدف لا علاقة له بالتجارة، وهو التعرُّف بالبدو والاطلاع على أحوالهم. ولذا طلب لاسكاريس من رفيقه أن يسجل يوميًّا على ورقة جميعَ ما وقع ويقع لهما من حوادث، منذ مغادرتهما حلب، وهو بدوره يدون ملاحظاته في دفتر باللغة الفرنسية، مستعينا

بمذكرات الصايغ، ويعلمنا فتح الله أنه ظل يُدوِّن يومياته مدة ست سنوات إلى ما بعد وفاة لاسكاريس في القاهرة"[1].

ويضيف شلحد بقوله: "وكان لا بد للشيخ إبراهيم من إطلاع ترجمانه على الغرض الحقيقي من هذه الرحلة: فأعلمَه عندئذ أن الغاية من الرحلة هي الكشف عن أحوال البدو، والتعرُّف بكبراء أمرائهم، وكسب صداقتهم، والسعي في جمع كلمتهم وإبعادهم عن العثمانيين، والعمل على معرفة الصحاري ومسالكها ومياهها، وأن الهدف السياسي هو توحيد صفوف البدو ليكونوا عونًا لجيش كبير سيمرُّ بالشرق ويقطع الصحراء قاصدًا الهند، وأن الدريعي بن شعلان هو الشيخ الكبير الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق هذه المآرب"[2].

يشير شلحد إلى أن الشيخ إبراهيم هو الاسم الذي تسمَّى به لاسكاريس عند البادية، وأن فتح الله بن أنطوان الصايغ اتخذ لنفسه اسم عبد الخطيب وفي رواية أخرى عبد الله الخطيب. ولكن كيف وصلت هذه المذكرات إلى القارئَيْن العربي والفرنسي؟ يذكر شلحد أنه هو الذي نشر أول مرة في اللغة العربية في كتابه عن فتح الله الصايغ هذه المذكرات أي بعد مئة وخمسين سنة من نشرها

(1) يوسف شلحد، رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحاري العراق والعجم والجزيرة العربية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية 1991، دمشق، صـ 10.

(2) المرجع نفسه صـ 11.

باللغة الفرنسية، بعد أن اشتراها الشاعر الفرنسي الرومانسي والسياسي الكبير ألفونسو دو لامارتين من فتح الله الصايغ وترجمها، والتي نشرها في الجزء الرابع من كتابه (رحلة إلى الشرق) الصادر سنة 1835. ولاقتناء وشراء هذه المذكرات حكاية ينقلها دو لامارتين (نقلًا عن شلحد): "ولا يغفل لامارتين عن ذكر الأسباب التي جعلته يهتم بمذكرات السائح السوري، ويخبرنا أيضًا كيف تم له الحصول عليها فيقول: كنت نازلًا في وسط الصحراء التي تمتد من طبريا إلى الناصرة، وكنا نتحدث عن القبائل التي التقينا بها خلال ذلك اليوم. فأعربتُ لدليلي عن رغبتي في التعرف بالبعض منها والعيش معها ردحًا من الزمن، وتتبع خطواتها من دمشق إلى شواطئ الفرات لكشف اللثام عن حضارة الصحراء، ولكن لم يبقَ لدينا الوقت الكافي لمثل هذه المغامرة التي لم يجرؤ أحد من المسافرين على القيام بها، إلا رجلًا واحدًا يدعى لاسكاريس، ولكنه مات وضاعت معه المعلومات التي جمعها عن أهل البادية خلال عشر سنوات... فقال له دليله: لعلها لم تُفقَد تمامًا، لأنه على معرفة جيدة بالشاب الذي كان يرافق لاسكاريس، ولطالما سمعه يتحدث عن هذه الرحلة إلى البادية، وعن اليوميات التي كان يكتبها بناءً على طلب معلمه. وهكذا مكَّنَت الظروف لامارتين من شراء مذكرات الصايغ، وتمت ترجمتها إلى الفرنسية على يده أيضًا"[1].

(1) المرجع نفسه صـ 13-14.

ما دور فرنيل في مذكرات الصايغ؟

بعد صدور كتاب (رحلة إلى الشرق) لـ"لامارتين" التي كانت تتضمن نص رحلة فتح الله الصايغ لم تحظَ بأي نوع من التلقي النقدي. ذكر يوسف شلحد أن: "رئيس الجمعية الآسيوية شك في صحتها، فسكتت عنها مجلة هذه الجمعية، وكانت يومئذ لسان حال المستشرقين، ولم تتناولها بالنقد، بل إنها لم تذكرها بخير أو شر إلا بعد وفاة الشاعر لامارتين".

ما لم يقله أو يُشِر إليه –على حد علمي– يوسف شلحد هو الدور الحاسم لرئيس الجمعية الآسيوية آنذاك جول مول Jules Mohl الذي ذكر في مقدمته لرسالة فرنيل المنشورة في يناير 1871 يقول فيها مول إنه عندما شك في صحة رحلة فتح الله الصايغ كما أوردها لامارتين قام مباشرةً بمخاطبة فرنيل الذي كان يقيم في ذلك الوقت في القاهرة طالبًا منه أن يتحقق من صحة ما ورد في الجزء الذي خصصه لامارتين لرحلة فتح الله الصايغ. يشير مول إلى استحسان فرنيل لصحة هذه الرحلة ولكنه بعد أن عرض ما جاء بها من تفاصيل بخاصة فيما يتعلق برحلة الصايغ بصحبة الدريعي بن شعلان إلى الدرعية، وما قام به فرنيل من عرض لهذه التفاصيل على شخصيتين مهمتين من داخل الدرعية ومن المقربين لحاكمها ويقيمان –لظروف سياسية جبرية– في القاهرة، هما أحمد بن رشيد الحنبلي وإبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب (ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب).

ولا بد من القول إن فرنيل بناءً على طلب من مول ترجم أولًا نص لامارتين من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، بمعنى أن أهل الخبرة الذين يتحدث عنهم فرنيل قد اطلعوا (وهذا ما أشار إليه يوسف شلحد) على ترجمة لنص فرنسي مترجم عن العربية.

ننطلق هنا فيما سوف يرد ذكره من نص رسالة فرنيل التي بعثها إلى مول في نوفمبر 1838 والتي لم ينشرها مول إلا عام 1871. يذكر مول في مقدمته لهذه الرسالة أنه لم ينشر رسالة فرنيل تجنبًا لتصادُم محتمَل بين فرنيل ولامارتين. ولهذا فقد أخَّر نشرها إلى ما بعد وفاة لامارتين.

يقول فرنيل في بداية هذه الرسالة التي تقع في حوالي 17 صفحة: "سيدي [مول]! أعلن الانتصار الكامل لرأيك (حكمك) على رأيي حول النص. إن شكوكيتك محقة لأنني وجدت لك أهم شخصيتين مؤهلتين يمكن لهما أن يحسما هذه القضية محل الجدل"[1].

في هذه الرسالة نلاحظ بوضوح الخطاب التهكمي الذي يتبناه فرنيل تجاه لامارتين وذلك بقوله: إن الشاعر الفرنسي أراد أن يكتب قصيدة بأسلوب عنترة لكنه عجز عن فعل ذلك. يرى فرنيل أن الخيال الملحمي كتلك الرحلة التي قام بها فتح الله الصايغ

(1) المجلة الآسيوية، يناير–فبراير 1871، صـ166.

تتطلب إقامة طويلة عند عرب الصحراء، ودراية عميقة بلغتهم وأخلاقياتهم[1].

يشير فرنيل في هذه الرسالة إلى أنه اعتمد على ترجمة لامارتين وأنه لم يتسن له الاطلاع على المخطوطة الأصلية، إلا أنه في أثناء عودته إلى مصر مرة أخرى استقصى بعض الشخصيات السورية التي عاشت في المنطقة والذين من ضمنهم مترجم القنصلية الذي كان على معرفة بفتح الله الصايغ وهو الذي راجع معه المذكرات أيضًا قبل أن يتنازل عنها للشاعر لامارتين.

لقد لعب فرنيل بلا جدال دورًا مهمًّا بممارسة التحقُّقِ في هذه القضية، والحق أنه تحقُّقٌ جاد للغاية اعتمد على أكثر من مصدر قبل أن يبعث برسالته إلى السيد مول. يؤكد فرنيل في هذه الرسالة أنه التقى مجموعة كبيرة من الشخصيات العارفة بالأحداث والوقائع التي دارت في المنطقة وأن معظمهم يميلون إلى التأكيد على مصداقية ما كتبه الصايغ فيما يخص المعارك التي دارت في المنطقة؛ نظرًا لقُربها الزمني من الجميع، لكن فرنيل في الوقت نفسه يؤكد على ممارسة الصايغ للتخييل بشكل كبير فيما يخص بعض الوقائع. فيرى أن من أهم الأجزاء التي وردت في مذكرات الصايغ ما أورده حول رحلته إلى الدرعية مع الدريعي بن شعلان.

---

(1) نفس المرجع صـ166.

يقول فرنيل في نهاية مقدمة رسالته لمول إنه بالرغم من كونه يتمنى من أعماق قلبه أن تكون الوقائع والأحداث التي تحدَّث عنها فتح الله الصايغ أثناء زيارته للدرعية بمعية الدريعي بن شعلان صحيحة إلا أن الأمر- بعد التحقق- لا يتعلق بزيف أحداث الرحلة، ولكـــن الأمـــر يتعلق بصحة القيام بالرحلة برُمَّتها، بمعنى أن الدريعي بن شعلان لم تطأ قدمه مدينة الدرعية ولم يلتقِ أحدًا من أسرة آل سعود على الإطلاق وأن القصة مُختلَقَة بالكامل[1].

إن دور فرنيل الحاسم في هذه المسألة يكمُن في تأثير الرسالة التي بعثها للنشر في المجلة الآسيوية وما اتخذه مول من إجراء، كما يذكر في مقدمته لرسالة فرنيل من أنه- وهذا ما كان قبل نشر الرسالة بسنوات- بعث بنسخة من رسالة فرنيل التي تتضمن رأي الشيخ أحمد بن رشيد (الحنبلي) وإبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب اللذَيْن (وبالأخص الشيخ أحمد بن رشيد) فنَّدَا ما قاله وذكره فتح الله من وقائع وأحداث حول رحلته إلى الدرعية ووصفه بـ"النصراني الكذاب". ما فعله مول ولم يذكره شلحد أن مول قرَّر عدم نشر الرسالة لتجنُّب التصادم بين لامارتين وفرنيل، إلا أنه في الوقت نفسه بعث بنسخة من رسالة فرنيل -رسالة حول وصف رحلة فتح الله الصايغ- إلى المكتبة الوطنية وطلب من المكتبة

(1) المرجع نفسه صـ 168.

الوطنية في باريس -المَلَكيَّة في ذلك الوقت- أن ترفق هذه الرسالة مع مخطوطة فرنيل.

ولا بد من الإشارة هنا إلى دور الأستاذ حمد الجاسر في لفت الانتباه إلى ظروف إنتاج هذه القضية في الفضاء العربي؛ بمعنى أن الأستاذ حمد الجاسر هو الذي نشر في مجلة العرب في رمضان 1404 الوصف الذي ورد في الجزء الرابع من (رحلة إلى الشرق) لـ لامارتين وذكرت المجلة أن لامارتين ينسبه إلى فتح الله الصايغ الحلبي. كما أن المجلة ذكرت أيضًا أن هذا الجزء من كتاب لامارتين المتعلق برحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية قد أثار شكوك كثير من المستشرقين حول صحة ومضامين ما ورد في وصف هذه الرحلة. مما حدا بعد ذلك بالأستاذ حمد الجاسر إلى الذهاب إلى التحقق المعرفي الذي يحيط بهذه الرحلة. لقد لجأ الجاسر لأجل سبر أغوار هذه القضية إلى صديقه المقيم في باريس الباحث القدير والكبير يوسف شلحد. وهنا يقول شلحد في مقاله الذي نشره قبل أن يؤلف كتابه الضخم حول رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية. يقول شلحد في مقاله (حول رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية): "وقد تفضَّل علَّامتنا الشيخ حمد الجاسر فطلب من محرر هذه السطور، بسبب إقامته في باريس، أن يوافيه بمعلومات عن هذه القضية قد تُنير القارئ الكريم"[1].

(1) مجلة العرب، ج 3 و4، 1984، صـ 162.

يمكن القول هنا على ضوء التسلسل التاريخي لما نُشر في اللغة العربية حول رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية أن الأستاذ حمد الجاسر هو الذي لفت انتباه الدكتور يوسف شلحد إلى هذه القضية، كما أنه يبدو أيضًا أنه هو الذي أوقد عند شلحد الرغبة في تقصِّي هذه الرحلة ونشرها في الكتاب المُشار إليه سابقًا.

في ختام هذا الجزء عن رحلة فتح الله الصايغ، وبخاصة رحلته إلى الدرعية يمكن لمن حظي بقراءة ظروف إنتاج هذه القضية وملابساتها التي أوردها وناقشها وتحقق منها باحث بحجم شلحد، يمكنه القول مع شلحد إن للترجمة دورًا كبيرًا في التأسيس لحالة عميقة من سوء الفهم نشأت عند فرنيل ومول بالإضافة إلى أحمد بن رشيد الحنبلي الذي أطلق على النص أحكامه القاسية انطلاقًا من النص المُترجم. ولهذا يميل يوسف شلحد إلى "الظن أن المنتَقَد أي فتح الله الصايغ والمنتَقِد أي الشيخ الحنبلي كليهما على صواب: لم يكذب الأول ولم يخطئ الثاني. إلا أن الترجمات العديدة حرَّفت عبارات الصايغ، وأبدلت معانيها، وأدخلت فيها ما لا وجود له في النص العربي الأول. فأصدر الشيخ الحنبلي حكمه وهو صادِقٌ على كلامٍ لم يقله الصايغ"[1].

لقد حرر يوسف شلحد في كتابه المفصل عن هذه الرحلة رحلة فتح الله بن أنطوان الحلبي إلى بادية الشام وصحاري العراق

(1) المرجع نفسه.

والعجم والجزيرة العربية مشيرًا إلى ما تضمَّنته من مغالطات وأخطاء تاريخية فادحة في الوقت نفسه الذي يجزم ويؤكد صحة حدوث هذه الرحلة وعلى فائدتها الجمَّة لما تضمَّنته من وصف للصحراء وللأمكنة وللعادات والتقاليد البدوية التي نقلها لنا بكل دقة وصْفٌ إبداعيٌّ مدهش، على خلاف الحكم الصارم الذي أصدرته المجلة الآسيوية في تقريرها السنوي لعام 1872، بعد الاطلاع على نص فرنيل المترجم وما تضمنه من تعليقات للشيخ أحمد الحنبلي بقولها: "إن هذه الرحلة وليدة الخيال، كتبها رجل عارف بأحوال البادية".

*****

حيوان القارن أو الحصان أحادي القرن:
إحدى خيبات فرنيل الكبرى

عندما نقول "إحدى خيبات فرنيل" فإننا نرمي إلى أن خيبات فرنيل وإخفاقاته كانت متعدِّدة في رحلته العلمية والعملية إلى الشرق، فقد مُنِيَ مشروعه الكبير في استحداث طريق مباشر للحج من بنغازي إلى مكة من دون القاهرة ودمشق بالإخفاق، مثله مثل رحلته إلى منطقة بدر في المدينة المنورة التي برغم حصيلة المعارف الجغرافية والأنثروبولوجية التي -كما يقول- اكتسبها في هذه الرحلة إلا أن النقوش التي ذُكرت له وكان يتطلع إلى اكتشافها وفك شفرتها لـم تعدُ كونَها في النهاية وسومًا تستعملها بعض القبائل كعلامات انتماء.

لكن من أهم إخفاقات فرنيل المحيِّرة هي رسالته التي كتبها من جدة في إبريل 1843 أثناء عمله قنصلًا لفرنسا في مدينة جدة. نشرت المجلة الآسيوية جزءًا من هذه الرسالة التي وجَّهها فرنيل للسيد جومار[1] (الجغرافي الفرنسي الشهير وعضو المعهد الفرنسي)

(1) Edme Jomard عضو البعثة الفرنسية إلى مصر عام 1798، كرس كثيرًا من حياته وعمله لهذا البلد. بعد عودته إلى فرنسا في عام 1803 شارك في صياغة =

تحت عنوان: "مقتطفات من رسالة فرنيل حول بعض الحيوانات ذوات الأربع المشهورة بأسطوريتها". يصل عدد صفحات هذه المقتطفات لحوالي 35 صفحة خصصه فرنيل للحديث عن حيوان محدَّد وهو حيوان القارن (الحَريش) أو الحصان الأحادي القرن الأسطوري la licorne أو Unicorne.

عُرف حصان أحادي القرن على أنه كائن خرافي على هيئة حصان (أبيض غالبًا) له قرن واحد نابت في وسط جبهته وله ذيل كذيل الأسد. اللافت أنه -كما يذكر المؤرخون- أن أسطورة هذا الحصان موجودة في معظم أساطير العالم. فقد حضر بقوة في الأساطير الرومانية، وذَكر كثير من الرحالة القدماء أن موطنه الهند، وهناك تبايُن كبير في وصف شكل هذا الحيوان على امتداد العصور. كما أن هناك من يشير إلى أنه رغم حضوره الطاغي في الأساطير العالمية إلا أنه لم يحضر في الأساطير الإغريقية، في نفس الوقت الذي يرى بعض المؤرخين أن هيرودوت أشار إلى وجوده في ليبيا. وبعض الروايات التي تشير إلى وجوده في مصر وإثيوبيا وشبه الجزيرة العربية[1].

= وصف مصر، وهو عمل جماعي في عشرة مجلدات مكتوبة وثلاثة عشر مجلدًا من اللوحات التي ظهرت في المطبعة الإمبراطورية ثم الملكية بين عامي 1809 و1828. كما كان من أوائل الذين اكتشفوا الأصل الجيوديسي للأطوال اليونانية القديمة وتحويلها إلى النظام المتري الجديد.

(1) الموسوعة الفرنسية (Universalis) "حول أحادي القرن".

كما "تشير بعض المقاطع الشعرية من الكتاب المقدس إلى حيوان ذي قرون قوي ورائع يُسمَّى ريم. تمت ترجمة هذه الكلمة "يونيكورن" أو "وحيد القرن" في العديد من إصدارات الكتاب المقدس، لكن العديد من الترجمات الحديثة تفضل "الثور البري (aurochs)"، وهو المعنى الصحيح للريم العبرية كحيوان كتابي. جرى تقديم اليونيكورن بشكل مَجازيٍّ في الكنيسة المسيحية المبكرة، كما يُظهِر أحد أقدم التفسيرات في المعبد اليوناني القديم المعروف باسم الفيزيولوجيا، والذي ينص على أن اليونيكورن هو حيوان قوي وشرس لا يمكن الإمساك به إلا إذا وُضعت عذراء أمامه، يقفز اليونيكورن في حضن العذراء، ثم ترضعه وبعد ذلك تقوده إلى قصر الملك. وهكذا شبَّه كتاب القرون الوسطى وحيد القرن بالمسيح، الذي رفع قرنًا للخلاص للبشرية وسكن في رحم مريم العذراء. تحكي أساطير أخرى عن قتال اليونيكورن مع الفيل، الذي يقوده أخيرًا حتى الموت بقرنه، وتنقية اليونيكورن للمياه المسمومة بقرنه حتى تشرب الحيوانات الأخرى"[1].

ينطلق فرنيل هنا من شخصيته المتعمِّقة جدًّا في الكتب المقدسة بخاصة (التوراة والإنجيل) ومن ميوله الدينية المسيحية التي تخالطه في كل لحظة وفي كل موقف. يقول في بداية رسالته إلى جومار:

---

(1) موقع الفلسفة والدين:
https://ar.dainamtechnology.com/unicorn-mythological-creature

"سيدي، أقدم لكم هنا بعض المعلومات حول علم الحيوان المقدس التي أدت منذ بوشار إلى العديد من الأبحاث غير المثمرة. في حال لم تكن معلوماتي جديدة تمامًا، وفي حال سبقني -دون علمي- بعضُ الرحَّالة القدامى أو المعاصرين، فإنني أتمنى أن تلتزم الأكاديمية بقبول هذه المعلومات تأكيدًا لحقيقةٍ تُدرِكها.

أبعث إليكم في كلمتين ما تعلمته للتو: - "حيوان القارن الذي تذكره لنا الكتب المقدسة وتصِفه موجود في إفريقيا، وكما وصفه لنا -إلى حد ما- بليني الأكبر. على الرغم من أنني لم أرَ هذا الحيوان، وليس لدي حتى الأمل في رؤيته، فلم يعد لدي أي شك في وجوده على أرض الواقع. خلال إقامتي لمدة اثني عشر عامًا في إفريقيا والجزيرة العربية، اكتسبت معرفة الرجال الذين تربطني بهم يوميًّا علاقة مباشرة. استطعت أن أقدِّر بشكل عام وتقريبي درجة مصداقية الأجناس المختلفة والقيمة النسبية لشهاداتهم. أضحيت أميِّز بين الخرافات التي يقرُّ بها الإنسان بسذاجة، وبين الحقائق التي يقف عليها المرء شاهدَ عيان. من ثَم فإن محادثة بضعَ ساعات مع رجال من العائلة نفسها، أو- حسب الحالة- بضعة أيام أو بضعة أشهر من العلاقات المستمرة، قَلَّت أو كَثُرت، فإن هذا يمنحني قيمة الفرد نفسه والمعيار اللازم لقيمة شهادته الشخصية التي تنأى به عن أي مصلحة للكذب"[1].

(1) Extraits d'une lettre de M. FRESNEL à M. Jomard sur certains quadrupèdes réputés fabuleux, extrait n 4 de l'année 1844 du journal asiatique.

بعد ذلك ينخرط فرنيل في وصف دقيق لشكل هذا الحيوان، ويُعرِّج بعد ذلك بشكل مفصَّل أيضًا على سلوكياته في الهجوم والدفاع عن نفسه والخطط المُحكَمة التي يتبناها الصيادون لاقتناصه. بالإضافة إلى أن فرنيل حرص أيضًا أن يورد في هذا النص المقاطع والآيات التي ورد بها حيوان أحادي القرن في التوراة والإنجيل[1].

اللافت جدًّا هو أنه برغم اكتشاف حقيقة أن ما نقله فرنيل، وانهيار ما أكد عليه من وثوقية فائضة في وجود هذا الحيوان، إلا أننا لا نزال نلاحظ تداول بعض المواقع العلمية لهذا النصَّ. ولا نعلم هل المقصود بالاستمرار في تقديم هذا النص يعود إلى الجانب الإبداعي المدهش لفرنيل في وصفه لهذا الحيوان الأسطوري، وإلى الحالة الوصفية لأدق التفاصيل الفسيولوجية والنفسية لهذا الحيوان؟ هل لأنه نص مُغرٍ على مستوى الوصف وعلم الحيوان؟!! أم أن هناك من لا يزال يؤمن بإمكانية العثور عليه بخاصة أن الإشارة إليه في الكتب المقدسة تجعل المؤمنين به يوقنون بوجوده، وأننا لا بد أن نعثر عليه طال الزمان أو قَصُر؟!! علاقة حيوان القارن بمسألة العذرية والاشتغال عليها من قِبل رجال الدين المسيحيين وربط هذه المسألة بمريم العذراء-عليها السلام- أمر لافت ويتسق مع جوهر تعاليم الدين المسيحي.

---

(1) التفاصيل في النص، المرجع نفسه.

في النهاية ما هو مؤكد أنه برغم أسطورية هذا الحيوان إلا أنه يعدُّ من أكثر الحيوانات التي استعملتها الأوساط الغربية المتعددة لتمرير خطاباتها الحجاجية التي ترمي إلى إقناع المتلقي بوجاهة منتجاتها الصناعية أو العاطفية. يبدو أن أهمية نص فرنيل من جهة التلقي تكمُن فيما أورده من صفات ومن قِيَم مرغوب فيها تحيط بهذا الكائن. برغم أن قناعة فرنيل بوجود هذا الحيوان (المقدس) الأسطـــوري علـــى أرض الواقع قد تطايرت في الهواء، إلا أنه احتُفـــيَ بنَصِّه حـــول حيـــوان القارن بطريقة مدهشة، وعزز الحضور الأسطوري لهذا الحيوان، ممهِّدًا لاستعماله بوصفه قيمةً (إنسانيةً) واجتماعيةً.

****

رسالة فرنيل حول نتائج بعثة التنقيب العلمية إلى بابل

بعد وقت قصير من انتهاء فرنيل من مهمته بوصفة أول قنصل لفرنسا في مدينة جدة (1848)، عاد فرنيل إلى المنطقة العربية عبر بوابة العراق. فقد كُلف هذه المرة بترؤُّس بعثة للتنقيب في المناطق الأثرية في مدينة بابل. وقد جاء تكليفه بهذه المهمة بناءً على ما اكتسبه من خبرة كبيرة إبان تجربته الطويلة في البلاد العربية بخاصة (مصر، وشبه الجزيرة العربية).

انطلقت هذه البعثة بعد ثورة 1848. وخصَّصت فرنسا لهذه البعثة مخصصات ضخمة واختارت لها نخبةً من العلماء المتخصصين في الآثار والمهتمين بهذه المنطقة على وجه الخصوص، من هؤلاء جول أوبير[1] (Jules Oppert) وذلك بعد عشرة أعوام من انتهاء بعثة

(1) في عام 1851، انضم أوبير إلى البعثة العلمية والفنية إلى بابل بقيادة فرنيل. في مايو 1856 حصل على الجنسية الفرنسية بمرسوم تقديرًا لخدماته.
في عام 1857 عُيِّن أستاذًا للغة السنسكريتية وعلم فقه اللغة المقارن في مدرسة اللغات التابعة للمكتبة الوطنية بفرنسا، وفي هذا المنصب نشر كتابًا نحويًّا باللغة السنسكريتية في عام 1859. مجال دراسته الأساسي هو الآشورية وما يتصل بها من موضوعات. نجح في فك شفرة النقوش المسمارية في ضوء الاكتشافات الأثرية الجديدة، نشر في عام 1865 تاريخ إمبراطوريات=

بوتا في خرساباد. وحصلت هذه البعثة على ميزانية بلغت 70.000 فرنك وهو ما يعدُّ مبلغًا ضخمًا في ذلك الوقت كما يشير المتخصصون. ووصلت البعثة إلى بابل، بعد أن مرَّت ببعض الصعوبات، في يوليو 1852.

كتب فرنيل في ديسمبر 1852 من مدينة الحلة نصًّا مفصَّلًا حول بعض نتائج هذه الرحلة نشرته المجلة الآسيوية في يونيو 1853 بعد أن نبه مول في هامش النص إلى أنه استبعد من هذا النص ما تطرَّق إليه فرنيل من الصعوبات الجمَّة التي تواجه البعثة على المستوى اللوجستي. فجاء النص في حوالي 62 صفحة. وهو نص ثري للغاية[1]، لكن برغم استبعاد مول هذه التفاصيل من النص إلا أن مجموعة من علماء الآثار الذين أتوا بعد فرنيل بعقود وتحدثوا عن ظروف إنتاج هذه البعثة اختلفوا فيما بينهم حول نتائجها، أو بالأحرى: هل تصنف من البعثات العلمية الناجحة أم الفاشلة؟

من أهم نتائج بعثة فرنيل إلى بابل اشتغالها الكبير على (أسد بابل) الشهير؛ إذ إنها: "كشفت النقاب عنه كليًّا، وأعادت تنصيبه من جديد على قاعدته، ومنذ ذلك الحين وهو لا يزال ماثلًا للعيان"[2].

= الكلدان وآشور. نُشر كتابه "عناصر القواعد الآشورية" في عام 1868. وفي العام التالي عُيِّن أستاذًا لفلسفة اللغة والآثار الآشورية في الكوليج دو فرانس.

(1) لا نعلم هل تُرجم هذا النص المهم إلى اللغة العربية؟ وفي حال لم يُترجم، في تصوري أنه جدير جدًّا بالترجمة ليطلع عليه المتخصصون في آثار بابل، والوقوف على حقيقة المغالطات التي طُرحت حول فاعلية بعثة فرنيل.

(2) مارغريت روتن، تاريخ بابل، ترجمة: زينة عازار وميشال أبي فاضل، مجموعة زدني علمًا، منشورات عويدات، صـ 23.

تعدُّ بعثة فرنيل التي استمرت من 1851 الى 1854 من البعثات العلمية التي اختُلف حول نتائجها. فهناك مَن يرى أنها شكَّلت فشلًا ذريعًا للجهود الفرنسية الرامية إلى التعبير عن حضور علمي كبير في مواجهة الحضور البريطاني في المنطقة؛ وهناك مَن يرى أنها إضافة معرفية راسخة للدراسات التي قامت في منطقة بابل.

موريس بيّي Maurice Pillet يرى أنه يعود الفضل إلى بعثة فرنيل في الكشف عن المكانة والثراء الذي تكتنزه منطقة بابل. وهي التي أثبتت من دون شك أن التل الذي يُطلق عليه "القصر" هو نفسه "قصر العجائب" الذي وصفه لنا هيرودوت وديودور، وهو القصر نفسه الذي شيَّده نبوخذ نصر والذي أراد ألكسندر إعادة ترميمه. كما يعود الفضل أيضًا لبعثة فرنيل في الكشف عن حجم عمق الحفريات اللازمة (20 إلى 25 مترًا) في باطن الأرض للوصول إلى أساس المبنى[1].

في حين أن مارغريت روتن في كتابها حول "تاريخ بابل" تلفت الانتباه إلى خطأ ارتكبته بشكل عام بعثات التنقيب من مجازر في حق المواقع الأثرية في بلاد ما بين النهرين وغيرها. وما صاحب هذه الحملات من ممارسات لا يمكن وصفها إلا بعمليات السطو والنهب لكل ما يقع بين أيديهم مما خف أوثقل حمله. وهي تندد بهذه الممارسات، تشير روتن إلى أن بعثة فرنيل

(1) Pillet Maurice. L'expédition scientifique et artistique de Mésopotamie et de Médie. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 61e année, N. 5, 1917. pp. 329-338.

همَّت بفعل ما لا يُحمد عقباه في منطقة بابل. تقول روتن: "وبناءً على شرح المُنقِّبين بإمكاننا الرد على أن اهتمام علماء الآثار الوحيد في تلك الفترة كان منصبًّا على البحث عن الشيء النادر وعن الأثر. فقد قاموا بأعمال همجية حقًّا لتخريب الآثار، فنزعوا رؤوس التماثيل التي لم يكن بوسعهم حملها، وبتروا الآثار على هذا النحو بترًا لا علاج له. وإليك أيها القارئ ما سجل لنا التاريخ من عقلية المُنقِّبين الهمجيين. فثمة مَثَلٌ نموذجي في تقرير فرنيل أرسله إلى الوزارة المَعنية بالأمر (رقم 5، تاريخ، 31 مارس 1852). يقول فرنيل (نقلًا عن روتن): "أما بالنسبة لطلل بير نمرود المصنوع من الزجاج، والواقع غربي الفرات، والذي يخال الناس عادةً أنه برج بابل، فقد صرح لي الكولونيل رولنسون بأنه لا يعتقد أن استكشافه سهل إلا عن طريق لغم يشق انفجارُه البرجَ إلى شقين، ويفتح لنا طريقًا داخله. وإذا كنت قد نجحت فيما بعد في عقد صلات طيبة جدًّا مع العرب، أسياد الصحراء التي يقع فيها بير نمرود، فلكي أستطيع القيام بعملية من هذا النوع، فهل تأذنون لي يا معالي الوزير باللجوء إلى هذا الإجراء؟ ولا أخفيك أنه لو أن الإنكليز الذين خابوا في مسعاهم فكروا في إجراء لغم في تلك الركام المغلقة لكنت أتمنى أن أقوم بذلك قبلهم. ولكنني لن أقوم بشيء من هذا القبيل قبل الحصول على موافقتكم"[1].

(1) مارغريت روتن، تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، مجموعة زدني علمًا، منشورات عويدات، صـ 25.

وتضيف روتن هنا بقولها: "ولحسن الحظ أنه بالرغم من موافقة الوزير المختص لم يرَ هذا المشروع النور! وكان على هذه البعثة أن تنتهي بكارثة. فقد كان من المفروض أن تُنقل آثار بابل القديمة، بالإضافة إلى تلك التي استخرجها بلاس Place، خليفة بوتا من خرساباد بوساطة الطوافات، والنقل النهري حتى مصب نهر دجلة. وكان وضع الأسطول النهري صعبًا بسبب أنواء النهر، وأعمال الأهلين العدائية. فقد غارت الآثار في غياهب نهر دجلة (1855)"[1].

مع ذلك، من يطَّلع على ما كتبه فرنيل من تقارير علمية حول سيرورة هذه البعثة، وما تضمَّنته من وصف دقيق للأحجار المصقولة ومنطقة القصر، والوصف الدقيق للألوان وطبيعة هذه الألوان والبُعد الكيمائي لهذه الألوان (معلوم كما رأينا سابقًا أنه بدأ حياته مع الكيمياء). صحيح أن فرنيل يقول ويؤكد في أجزاء عديدة من هذه الرسالة أن دوره لا يكاد يتجاوز الترجمان للكولونيل رولنسون وأوبير إلا أنه من يدقق بإضافاته وتحليلاته الدقيقة يكتشف أن له دورًا علميًّا ومعرفيًّا وازنًا في هذه الرحلة. حيث يقدم لنا فرنيل وصفًا معرفيًّا لأدق التفاصيل التي وقف عليها الفريق العلمي؛ وصفًا دقيقًا يعتمد في كل مرة على المقارنة مع ما ورد في كتب التاريخ التي قرأها واستوعبها وأشار إليها قبل أن يحضر إلى بابل؛ مثل هيرودوت وديودور الصقلي، وبخاصة

(1) المرجع نفسه، صـ 25.

الإحالات إلى بيروسوس وموسوعته الشهيرة حول تاريخ بابل، ما يميز نص فرنيل هو إتقانه للغة العربية ومعظم اللغات السامية، وهذا ما قد يفسر توقف فرنيل بشكل مطول حول الكتابات التي اكتشفها فريقه في موقع بابل بخاصة اللغة المسمارية. إن ما تفرَّد به فرنيل يكمُن في استيعاب ما كُتب عن كل منطقة يصل إليها، ومن ثَم مقارنة مشاهداته وتحليله مع ما لديه من كتب التاريخ، معلنًا ما يتطابق مع ما ورد في كتب التاريخ وما يختلف معه. وغالبًا ما يعمد إلى التعليق بتجرُّد على سبب التبابين بين مشاهداته وما هو موجود في كتب التاريخ.

قد يكون من الملائم القول هنا إننا بحاجة إلى العودة إلى نص فرنيل حول نتائج رحلته مع فريق عمله إلى بابل، ومقارنتها بما ورد في النص الضخم الذي كتبه أوبير لاحقًا عن تاريخ بابل ونشرته جامعة كامبريدج. إن الوقوف على نصوص فرنيل وتحليلها هو الذي قد يكشف لنا حجم وأهمية إسهامه (الشخصي المعرفي)، بخلاف ترؤُّسه للبعثة بطبيعة الحال.

ما هو مؤكد أن فرنيل بعد انتهاء أعمال البعثة بقي في بغداد محاولًا إنشاء معهد خاص للدراسات العلمية للمواقع الأثرية في العـــراق. ولكن شيئًا من ذلك لم يكن؛ إذ باغتته المَنيَّة في بغداد عام 1855.

***

ترجمة مقتطفات من نصوص فيلجانس فرنيل

- نص سوق عكاظ[1]

"لن أسامح الإسلام أبدًا إلغاءه سوق عكاظ باعتباره ليس فقط سوقًا سنويًّا مفتوحًا لجميع قبائل شبه الجزيرة العربية، وإنما كان أيضًا بمثابة مؤتمر أدبي، أو بالأحرى مسابقة عامة للفضائل والمجد والشعر، حيث يجيء الشعراء الأبطال لتتويج بطولاتهم عبر الشعر المُقفَّى، وممارسة الجدل السلمي حول جميع القضايا. كان يُقام بالقرب من مكة المكرمة، بين الطائف ووادي نخلة. يُفتَتَح في هلال ذي القعدة، أي في بداية فترة الثلاثة الأشهر المقدسة [حُرُم]، تتوقف خلالها جميع الحروب ويحرم فيها الاقتتال. لذلك لم يكن من المقبول إثارة نقاشات دموية، وإنما المحافظة على نوع من التماهي النبيل بين القبائل؛ وفي حال تم انتهاك قوانين هذا التجمُّع، وهذا ما قد حصل بالفعل، فإن خشية التجاوزات لم تحُلْ دون الاستفادة من فضائله. من ناحية، فإن سوق عكاظ كان بلا شك ساحة مفتوحة لجميع العواطف

(1) FRESNEL F., 1836, Lettres sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, BARROIS PERE et B. DUPPART, Paris, p: 31.

المجيدة، والحسد والبغضاء؛ ولكن لا ينبغي لنا أن نَغفُل عن أن لعبة المشاعر تتدخل هنا ضمن حدود معينة، انطلاقًا من أنها أمر غريزي، وحق لكل فرد كما في أي مجتمع. أما عن خطبهم في السوق فإنها لا تقبل أية عوائق. وفي حال وُجدت فإن المُشرِّع يحاول أن يحتويها، فإما أن يختفي الشعر أو يجد الشاعر نفسه خارج إطار القانون -وهنا قد تقولون إنني أسلمكم لغضب الأشرار- لا، أترك لكم التحكم في الفضائل الفردية والأعراف العامة. أليست مينيرفا Minerve مسلحة؟[1] حسنًا، فلتنزل إلى الساحة، وستحظون على أجمل مشهد يمكن للبشرية أن تقدمه لله وللعبقرية. الإنسانية l'humanité بطبيعتها مناضلة، وكل شِعرِها يكمُن في

(1) مينيرفا إلهة الحكمة والعقل زربة المهارات والحرف والفنون عند قدماء الرومان. تعدُّ إحدى أهم الآلهة عند الرومان: **"مينيرفا** إحدى أهم الآلهة في الأساطير الرومانية القديمة. كانت الطفلة المدللة لجوبيتر كبير الآلهة. وتحكي بعض الأساطير أنها ولدت من جبين جوبيتر كاملة النمو ومرتدية الدروع. ومينيرفا إلهة عذراء مثل الإلهة أثينا الإغريقية.
كانت مينيرفا تؤدي مجموعة متنوعة من الوظائف؛ فرمزت في الأصل للمهارة في الصناعة اليدوية، وخاصة تلك المرتبطة بالنساء كالغزل والنسيج، ثم صارت رمزًا للمهارة العامة. وقد عبدها الرومان فيما بعد باعتبارها إلهة الحكمة. وقد اعتبرت البومة رمزًا للحكمة لأنها طائر مينيرفا.
عبد الرومان مينيرفا على أنها إلهة القوى العقلية في الحرب، فقد كانوا يؤمنون أن الحرب تنطوي على قوى ذهنية عالية جدًّا، وصورها معظم الفنانين وهي ترتدي الدرع والخوذة. وكانت تحمل درعًا سحريًّا يسمى **إيجس"**. (الموسوعة العربية).

الصراع الأبدي للأهواء مع الأهواء، والفضائل، والأحكام المسبقة، والأخلاق. وكل نظام يسعى إلى إسكات مبدأ التمرُّد هو نظام حريم وإخصاء، إنه النظام الشرقي للمرأة الممتدُّ إلى كل ذي روح وحواس.

– ولكن الشر ينتصر على الخير، لكن العواطف تصدح عاليًا. إن هذا الاعتراض يجتاحني بقوَّة يُعيدني إلى سوق عكاظ. وأعترف أنني كنت منذ زمن غيرَ قادرٍ على فهم القدرة الأخلاقية لأبطال عكاظ في ممارستهم للنقاش في تجمُّع لم يكن يتمتع بوجود رئيس ولا جنود من أجل مواجهة العواصف. كيف نتصوَّر في الواقع، أولئك الرجال الذين يحملون جراحهم التي ما زالت تنزف والذين لهم ثأر لا بد من القيام به، يستطيعون أن يطبقوا الصمت –في زمن محدَّد– على أحقادهم، إلى حد الجلوس بهدوء بجانب عدو قاتل؟! كيف للشجاع طالب دم أبٍ أو أخٍ أو ابنٍ –حسب مصطلحات الصحراء والإنجيل– والذي ربما أمضى زمنًا طويلًا يبحث من دون نتيجة عن قاتل يجد نفسه أمامه في السوق ويستطيع أن يتعامل معه بطريقة سلمية، يمكن أن يقابله؟! كيف له أن يواجه بالإيقاعات والأناشيد شخصًا بمجرد وقوفه أمامه يجعله عُرضة للاتهام بالعجز والجبن في الوقت نفسه الذي يتطلع إلى أن يُجهِز عليه بعد انتهاء الهدنة؟! وأخيرًا، كيف يمكنه الاستماع إلى مديح يحتفي بتتويج انتصار تم على حسابه، وعليه أن يتحمل جحيم النظرات من دون أن يظهر ذلك على ملامح وجهه؟! هل كانت الدماء تجفُّ في عروق العرب أثناء انعقاد السوق؟! هذه

الأسئلة محيِّرة للغاية، وربما أن بعض قرائي بما وهبتهم الطبيعة من فطنة يرون أنها عصية على الإجابة، – والحق أنه تمت الإجابة عن هذه الأسئلة أيام الوثنية العربية بطريقة سهلة وأنيقة للغاية.

في سوق عكاظ، يأتي الشجعان مُقنَّعين. أثناء إلقاء الخُطَب والكلمات المرتجَلَة يقف بجوار الخطيب راوٍ محترفٌ يُكرِّر كلامه، عِلمًا بأنه يوجد وظيفة مشابهة لهذه الوظيفة وهي وظيفة المُبلِّغ (الناقل) المُكلَّف بإعادةِ –بصوتٍ عالٍ– ما يقوله بصوت منخفض الإمامُ في الصلاة.

لقد عرفتُ هاتَيْن الحقيقتَيْن من خلال الكتاب الذي أقرأ وأعلق عليه. ما عدا ذلك فإن استخدام القناع كان اختياريًّا تمامًا، كما يظهر من المشاجرات العديدة التي تولد وتموت في عكاظ. ولا يمكن إخفاء أن هذه الخلافات كانت في بعض الأحيان دموية، وهذا ما لا يمكن تجنُّبه في تجمُّع بدون رئيس، وفي أمَّة بلا سلطة تنفيذية. (...)

في منتدى الشعراء العرب (علمًا بأنه تقريبًا جميع المحاربين في العصر الذي أتحدث عنه كانوا شعراء) حدث اندماج لهجات شبه الجزيرة العربية في لغة سحرية، هي لغة الحجاز، التي استعملها محمد لقلب العالم رأسًا على عقب؛ لأن انتصار محمد ما هو إلا انتصار الكلمة. وعلى إثر تحييد الإسلام لسوق عكاظ ونبذه، بذلك يكون محمد قد قضى على برلمان شبه الجزيرة

العربية وضرب في مقتل هذا المجتمع القبلي الفريد الذي عبر أعنف الحروب،[1] لم ينسوا أصولهم المشتركة، ويحضرون في كل عام إلى هذا التجمع الوطني لتذوق لذة الاقتراع العام الرائعة. ومنذ ذلك الحين تم استبدال التقاليد المسماة (روايات) بالتقليد الذي يسمى (حديث)، وهو يحيل على رجل واحد، هو محمد.

لا شك في أن مسألة الشرف وما يترتب عليها من متطلبات تلعب دورًا كبيرًا جدًّا في حياة البدو. إن سرقة القطعان من قبيلة إلى أخرى، من دون إعلان حرب، هي مورد لا يليق بالشخصيات التي تتمتع بأرواح مرتاحة -في أي مكان آخر غير الصحراء: من الشيق ملاحظة أن النهب لم يكن يحدث بين القبائل المتحالفة-. وفي المُجمَل، من الممكن أن يرفض حبيبه على غرار الآداب المشابهة الموجودة في كورسيكا؛ ولكن بصرف النظر عن أي شعور بالنفور أو التعاطف، لا يمكن للمرء أن يتخيل التنظيم المنتظم لنظام ما بدون فائدتها الفلسفية من منطلق أن ممارسة قطع الطريق والثأر التي لا تستبعدُ الوحدةَ الوطنيةَ ولا الفضائلَ العامةَ والخاصةَ، ولا -قبل كل شيء- حبَّ الجمال؛ اللصيق -كما تصوره العرب- بجماليات الأخلاق في الشعر - التي تعدُّ أساس هذا النظام برمته.

(1) قد يكون من الملائم القول هنا إن فرنيل يجهل تماما أن الإسلام لم يتعامل مع سوق عكاظ بهذه القسوة؛ إذ إن السوق -كما تقول الروايات التاريخية- استمر بنشاطه بعد مجيء وانتشار الإسلام.

إن سوق عكاظ باعتباره سوقًا ومصدرًا للحماس يلبي احتياجات الحرب والسلام. كل الفضائل العظيمة هي على موعد لإثبات وجودها. الوحيدون الذين يتم استبعادهم من المنافسة بسبب التحيز الوطني هم أولئك الذين لا يزال الناس يسمونهم لفظ المساكين... فيما عدا ذلك، يعرف العرب تمامًا مثلنا إضفاء إعجابهم بالفضائل المتنوعة. لم يكتفوا بفضائل الشجاعة والسخاء، وفضائل الضيافة؛ بل أرادوا أن يعيش الناس في الازدهار ويكونوا فخورين ويتحلوا بالصبر على الشدائد. (ولا يلجؤوا إلى الانتحار إلا في الحالات القصوى (...).

هؤلاء العرب أنفسهم الذين لا يتورَّعون عن سلب الإبل بالقوة من جيرانهم، كانوا يتمتعون بكرم عبثي تجاه أول وافدٍ يفِدُ عليهم. ولا يزال يوجد بعض آثار هذا السخاء المفرط عند بعض العرب المخلصين للعادات. وحتى في مصر، أرض الأنانية والجشع، وسوف أستشهد هنا بمثال صديقي الشيخ رفاعة من أكرم الرجال الذين عرفت، والذي سأتوجه إليه بالكلام بلا تردُّد وبطِيب خاطر في حال كان ثريًّا وكنتُ في حاجة للمال. أقام خمس سنوات في باريس وكتب وصفًا لرحلته طُبع في بولاق بأمر من نائب الملك[1].

(1) يقصد هنا رفاعة الطهطاوي. يبدو كما يشير فرنيل في رسالته الأولى حول تاريخ العرب قبل الإسلام أن هناك صداقةً متينة جمعت بين الشيخ رفاعة الطهطاوي وفرنيل أثناء إقامته في القاهرة بين 1831 و1835. أما الكتاب المشار إليه فهو: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز".

– مـن بين أكثر العيوب التي يأخذها علينا الشيخ رفاعة أننا –في رأيه– نتصف بالبخل؛ ولكنه يضيف: "أن هذه الرذيلة هي صفة موجودة في غير العرب وأنه من العبث أن نبحث عن الكرم في مكان آخر عند غيرهم".

– بالنسبة لنا نحن الأوروبيين الآخرين، نلوم الناس على طول الخط في هذا البلد على جحودهم وجشعهم، وبالتأكيد لستُ آخر من يُوجِّه لهم هذا اللوم المزدوج. لكن هاتين السمتين الشخصيتين، المقززتين جدًّا بالنسبة لنا، ترتبطان ارتباطًا وثيقًا بالمفهوم القديم للسخاء، كما هو موجود اليوم (أنا أتحدث هنا عن الفكرة، وليس الشيء) بكل نقاوتها. إن كلمة "مدينٌ لـ" عندنا مرادف لهذا التعبير (الشخص الذي يتلقَّى الإعانة). أما عند العرب فهي على العكس من ذلك؛ فإن فكرة الفضل أو الدَّيْن غالبًا شبه مستبعَدة؛ لأن المدين يتحلل مما هو عليه بواسطة المدائح والتبريكات التي يكيلها للدائن الذي غالبًا ما يُفترض أنه يكتفي ويرضَى بها. بالتالي ما الذي يمكن أن يكون أكثر ملاءمةً لإثارة جشع الناس العاديين، وأولئك الذين ليس لديهم ما يمنحونه أو يعطونه؟ وليس لديهم أي حرج في تلقي الأشياء (الأموال) التي لا يفكرون أبدًا في رَدِّها. والحق أن علينا ألا نزدري كل شيء في هذا النظام. ولو أن الناس الذين ندين لهم بالفضل والذين تزخر بهم أوروبا على استعداد لأن يكونوا أقل إلحاحًا، سوف

تكون علاقاتنا الاجتماعية أفضل مما هي عليه. لكن عاداتنا تملي على كلِّ مَن لديه ذرة كرامة منَّا ألَّا يخشى شيئًا أكثر من خشيته قبول تبرع أو قرض. والحق أن الاعتراف بالجميل يُعد حِملًا كبيرًا يصعب تحمُّله. هنا (في مصر) لا يمكن تقدير كُنه هذا الحِمل؛ وليس هناك ما هو أكثر وقاحةً عند العرب من التذكير بخدمة أُسدِيَت للآخرين.

لقد حاولتُ جهدي أن أكون محايدًا فيما طرحتُه، ووفيت بذلك. في الوقت نفسه أشعر أنني بحاجة أيضًا إلى القول إن المعاملة بالمثل للمساعي الحميدة هي الرابط الوحيد لمجتمع قابل للعيش، وأنني بعد تقويم الإيجابيات والسلبيات، أُفضِّل بُخلَنا على كرمٍ مجانيٍّ، والذي أصبح -علاوة على ذلك- سلوكًا نادرًا عند العرب، وفي حال وُجد فإنه يسهم في تكريس الكسل والجشع أي مصادر أعمق جرحٍ تعاني منه الدول الإسلامية".

*****

- حول اللغة العربية والترجمة والأدب[1]

"قبل وقت قصير من مغادرتي إلى صعيد مصر في يناير 1835، كان صديقي السوري السيد فارس الشدياق لمح لدى الشيخ الأزبكاوي (أحد الشعراء المعاصرين) شرحًا لـ "لامية العرب" منسوبًا لمحمد بن يحيى الملقب بـ (المبرد). وبما أنه لا يزال لدي بعض الشكوك حول معاني بعض أبيات قصيدة الشنفرَى، رجوت السيد فارس أن يفعل كل ما بوسعه للحصول على نسخة من المخطوطة التي وضعتها الصدفة في طريقه. كانت سعادة كبيرة عندما وجدت بعد عودتي نسخةً من هذه المخطوطة لكي أستطيع مقارنتَها بعد ذلك مع النص الأصلي.

يجب أن تكون قد تأمَّلت سنواتٍ عديدة مسائل في الفيزياء وفقه اللغة للشعور بحالة دقات القلب عندما نفتح الكتاب الذي نتوخَّى أنه يتضمَّن الحل المكتوب الذي نبحث عنه، سواء كان هذا الكتاب في مجال العلوم الطبيعية أو كتب التراث. ولو أنك كنت ترغب في الحقيقة من أعماق روحك فإنه يجب عليك أن تقبل بنفس الروح النص الذي يؤكد على جزء من تخميناتك والنص الذي يصحح هذه التخمينات. وهذا بالضبط ما حصل لي.

فيما عدا ذلك، هناك بعض الشروحات القديمة التي قرأتها

(1) FRESNEL F., 1836, Lettres sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, BARROIS PERE et B. DUPPART, Paris, page: 1.

للتو، والتي أنا بعيد كل البعد عن قبول ما يطرحه مؤلفها. والحق أنه يوجد المتمكنون والضعفاء بين الأساتذة العرب الذين ناقشتهم. والأمر بالطبع يعود إليَّ في نهاية المطاف للقطع في المسألة؛ لذلك يمكنني اليوم -بفضل كياسة فارس الشدياق وبعض والأدباء- أن أقدم للمتلقي الأوروبي نسخةً جديدةً مراجَعَة ومصحَّحَة من ترجمتي لـ "لامية العرب".

بصفتي صاحب شرحين لهذه القصيدة التي لا توجد في أوروبا أو التي لم نتعاطَ معها قط، سيكون من السهل بالنسبة لي أن أكتب عن الثمانية والستين بيتًا التي قالها بدوي بمجلد من الشروحات؛ ولكن، في الموقف الذي أجد فيه نفسي ونظرًا لضيق الوقت، أعتقد أنني أسدي خدمة أكثر واقعية للأدب الشرقي بإعطائي نتيجة عملي مختصرةً، وتخصيص الوقت الباقي لترجمة جديدة عوضًا عن مناقشة معنى كل بيت وكل كلمة وردت في الترجمة الأولى.

متبعًا هذا المبدأ، أبعث لك مع النسخة الثانية من ترجمتي لرائعة الشنفرَى، عينة من التاريخ القديم. إنه نثر العصور البطولية. أعتقد أنه أقدم ما قيل من النثر في آثار الأدب العربي. ومع ذلك، يجب ألا تخدعكم هذه الصفات المهيبة؛ إذ إن الآثار القديمة من تاريخ العرب التي تتزامن مع عصر شمشون وأبطال اليهود، على سبيل المثال، أخشَى أنها فُقدت إلى الأبد؛ - يا

للحسرة! علينا أن نعترف طالما أننا في سياق الاعتراف الموجِع أنه باستثناء بعض التقاليد المتناثرة في خضم فراغ هائل، فإنه ليس بإمكاننا قراءة تاريخ العرب سوى اعتبارٍ من القرن الذي يسبق محمدًا. ولكن بما أن أخلاقيات العصور القديمة حافظت عليها بقوة شعوب البادية فإنني أستعمل كلمة (بطولي) لوصف الفترة الأخيرة من عصر الوثنية العربية واليهودية والمسيحية، التي لدينا بعض المعلومات المبهمة عنها. إن النثر الذي أبعثه لكم يعود إلى ذلك العصر، مرفق معه أجزاء من القصائد المنظومة بعد الحماسة والتي تقدم لنا شرحًا تاريخيًّا لها (...)؛ والحق أن كل شيء يُعبَّر عنه بالشعر في العصور البطولية. يخبرنا جلال الدين السيوطي أن العرب قبل محمد ليس لديهم من الحوليات غير قصائدهم الصغيرة".

في ذلك الوقت، يذكر السيوطي، أنه في حال أن بدويًّا روى واقعة تاريخية أمام مجموعة من الناس يتلقونها أول مرة، فإنه لن يفوتهم أن يطالبوا هذا القائل بأن يستشهد لهم ببعض أبيات الشعر لتأكيد ما يقوله (انظر: الكتاب الصغير للسيوطي الوسائل إلى معرفة الأوائل) (...). أما بالنسبة للنثر فسأخبركم بعد قليل كيف وصل إلينا.

-عند فراغي من ترجمة نصف المجلد الذي ستقرؤون مقتطفاتٍ منه فإنني سأكون قد كتبت بذلك جزءًا لا يستهان به من

تاريخ العصر الذي ازدهر فيه أشهر شعراء الوثنية العربية، تاريخ ذي فائدة متواضعة جدًّا بالنسبة لنا، والسبب أن القصائد العربية ليست ملاحم، مثل تلك الموجودة في العصور القديمة الهوميرية، ولكنها عبارة عن قصائد وأغانٍ بسيطة يلمح الشاعر فيها إلى أحداث معروفة بشكل عام من وقتها وفي منطقتها، ومجهولة في الأماكن الأخرى (...).

يتبقى الحديث عن الطريقة التي أترجم بها، وهذا يعني أنني سأتحدث عن نفسي، وأنا أشعركم من الآن أنني سأتحدث بإسهاب عن هذا الأمر في هذا الفصل. لذلك إذا لم تكن في حالة مزاجية جيدة عندما تصلك رسالتي، احتفظ بهذا الجزء للنهاية حتى يكون مزاجكم في حال أفضل، وتخطوها على الفور كلها إلى (أيام العرب) التي هي أكثر متعة من التفاصيل التي سأدخل فيها.

لقد بدأت أفهم نوعًا ما أخيرًا ما نسميه في فرنسا بـ العربية المكتوبة arabe littéral؛ تلك العربية التي لم يمسك بها (كما تقول الروايات) سوى محمد. ومع ذلك يجب القول إنه برغم الجهود التي أبذلها منذ أربع سنوات، وهي مدة إقامتي في المشرق، لاكتساب هذه اللغة الميؤوس منها، التي وصفها بشكل دقيق أحد اللوردات الإنجليز بأنها: "العربية المستحيلة".

"أعترف أنه سيكون من المستحيل حقًّا بالنسبة لي في هذا العام الذي أتمتع به في القاهرة (1836)، أن أصل إلى الفهم الكامل

للنص الذي بين يدي لولا المساعدة اليومية التي أتلقاها من الشيخ محمد عياد الطنطاوي[1] (بارك الله فيه!)، الذي يُعد واحدًا من أبرز علماء فقه اللغة في الكلية الشهيرة التابعة لجامع الأزهر.

ولتصور الصعوبات التي تعتري فك شفرة المخطوطة التي بين أيدينا، نذكر بما يلي:

---

(1) الشيخ محمد عياد الطنطاوي (ولد 1810– توفي 1861) الشخصية البارزة الثانية في عهد محمد علي باشا. انتظم سنة 1830 في سلك طلبة الأزهر أولًا، ومن ثَم في المدرسة الإنكليزية بالقاهرة، متخصص بارع في اللغة العربية والشعر الجاهلي. كان فضله عظيمًا على المستشرقين الأجانب ولا سيما ف. فرنيل في كتابه: "رسائل حول تاريخ الجاهلية"، وعلى غ. فيل في كتابه حول: "الأدب العربي الجاهلي"، وعلى أ. بيرون: "المرأة العربية في العصر الجاهلي وما يليه" وعلى مؤلفات إدوارد لين وم. موخين وغيرهم. واستفاد الطنطاوي من معارف تلامذته الأجانب، فبرع في مجال المعارف الأجنبية وتشرَّب بالأفكار التنويرية. لكنه لم يتمكَّن من إسداء خدمات كبيرة للنهضة العربية، إذ سافر عام 1840 إلى بطرسبورغ بصفته أستاذًا للغة العربية في معهد العلوم الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية، فبقي هناك حتى وفاته. خلف لنا أثرًا واحدًا: "تحفة الأذكياء في أخبار بلاد روسيا"، ألف الكتاب امتثالًا لأوامر محمد علي باشا الذي أوصاه بإتقان اللغة الروسية وأن يجلب كل ما يعود بالخير والمنفعة على مصر من تلك البلاد النائية، يتألف الكتاب من مقدمة (انطباعات وتأملات عن بطرسبورغ) وفصلين قَيِّمين لخص المؤلف في الفصل الأول تاريخ التطور الثقافي في سان بطرسبورغ في عهد بطرس الأكبر إلى القيصر نقولا الأول، ويعالج الفصل الثاني عادات الروس وتقاليدهم وأخلاقهم". موقع معرفة: https://www.marefa.org

1. أن اللغة التي يُقدِّم منها عينة هنا هي لغة وقعت في شَرَك الإهمال في كل مكان ما عدا الجزيرة العربية بعد مدّة قصيرة من انتشار القرآن، الذي كان يجب على أبناء الفاتحين العـرب الأوائــل دراسته بشكل منهجي، كما نفعل نحن في دراسة اليونانية واللاتينية؛ لغرض فهم قصائد الوثنية والكتاب الذي قضى على الوثنية. لقد حافظت هذه اللغة على نفسها في مهدها مدةً طويلة أكثر من أي مكان آخر: ولكن الأدباء، أعني أولئك الذين نقلوا إلينا جزءًا منها كانوا من خارج شبه الجزيرة العربية، من تلك الأراضي التي غزوها لاحقًا.
2. أن الموضوعات التي يتناولها كتابنا تعود بشكل كامل إلى حقبة ما قبل الإسلام.
3. أن نظام الكتابة عند العرب يعتمد على الاختزال، يا له من اختزال؟! -اختزال تختلف فيه العديد من الأحرف فقط في عدد النقط المصاحبة لهذه الأحرف وموضعها.
4. أن هذه النقاط غالبًا ما تكون محذوفة في مخطوطتنا، وهذا ينطبق على معظم المخطوطات القديمة.
5. أن النسخة الفريدة التي نعكف عليها تعاني من أخطاء تحتاج إلى تصويب، وسد بعض الفجوات.

عندما يُتَغَلَّب على كل هذه الصعوبات، وبعد استيعاب جميع أفكار الراوي كما تلقاها الراوي من شيخه، هل تعتقدون أنني وصلت إلى نهاية معاناتي؟

آه! إننا بعيدون عن الخلاص يا سيد ديبار! ما تبقى عمله أصعب بكثير! فبعد استيعاب الفكرة في اللغة العربية لا بدَّ من إضفاء الطابع الفرنسي عليها من دون تشويهها. وهنا بالضبط يكمُن الكدح والعمل الشاق (...). يجب عليَّ أن أتحدث دائمًا لغة أولئك الذين يلزمهم قراءة ما أكتب في نفس الوقت الذي أسعى إلى استرعاء اهتمامهم؛ سواء كان الأمر يتعلق بفرنسية القرن الثامن عشر أو تلك التي نتكلمها في عامنا الحالي (1836)، فإننا إزاء لغة تتمتع بعبقرية مختلفة تمامًا عن عبقرية اللغة العربية. وعندما أنبه قُرائي بما فيه الكفاية كي يمنحوني تفويضًا مطلقًا لتمرير جميع أشكال العُجمة التي يمكن تخيُّلها؛ فلن أعمد إلى استغلال تغاضيهم عن ذلك؛ لأنني أعلم أننا جميعًا في نهاية المطاف لن نكسب شيئًا، من ثَم سأحاول بشتى السبل الممكنة تحقيق درجة الأمانة التي تستلزمها الحالة الحالية للغتنا؛ لكن لا يمكنني تجاوز ذلك.

– إلى هذا الحد سيُقال لي: كل شيء على ما يرام؛ لأنك تخضع للمعايير العامة في هذا السياق، شريطة أن تتلاشى شخصيتك تمامًا أمام المتكلم العربي، لن يلومك أحد على وضع الكلمات

الفرنسية على لسان المتكلم العربي. ما هو مهم هو أن أفكارك تعود إليك ولا ينبغي أبدًا إقحامها على لسان المتكلم العربي. هل تجنَّبت هذا المأزق؟

– لا، على الإطلاق. ولم أحاول تجنُّب ذلك. ما تسميه مأزقًا هو فقط لمن لا يفهم ما يترجم. – بالنسبة لاستبعاد الذات المتُرجِمة، سيكون هذا حتمًا واجبي لو كنتُ كاتبًا مسرحيًّا أقوم بوصف رجال وطني والعصر الذي نعيش فيه. لكنّ شخصًا كحالتي يسعى إلى تقديم شخصيات، أراد الله أن يكون بيننا وبينها مسافة 1200 عام، إلى صالوناتكم الأدبية، لا يمكنه أن يغادرها للحظة من دون أن تتعرَّض لألف مُنغِّص يشعر من خلالها بردة فعل عنيفة، أقلُّها ألا يُفهم إطلاقًا ما يُقال. وأكثرها فداحةً: أن يُساء فهم ما يُقال. في كل مرة أعمد إلى الترجمة الحرفية فإنني أفعل ذلك من صميم قلبي؛ ما عدا ذلك، فإنني أعيد صياغتها. وأحمقُ بلا شكٍّ ذلك الذي يعتمد على احتجاجات التسامح الكونية التي تهطل منذ عشر سنوات...! أقول إنني أحاول الوصول إلى درجة من الأمانة التي يتيحها الوضع الحالي للغتنا؛ كأنني أقول هنا ما تُتيحه أخلاقياتنا. أعتقد أن هذه الحقيقة لا تحتاج إلى إسهاب.

– بالنسبة لاستبعاد الذات المُترجِمة... هل يظن متلقي نصوصي أنني باعتباري مترجمًا يجب أن أتخلَّى عن ذاتيتي وعفويتي؟ لا يجب عليَّ ولا أرغب ولا يمكنني ذلك. إنني أحاول منذ أربع

سنوات أن أتماهَى مع بدو محمد من دون أن تتولَّد لديّ الرغبة في أن أتخلى عن ذاتي وأن أكون أنا. لقد أضفيتُ طبيعة إلى طبيعتي، لكني لا أستبدلها (وإلا فإنني لن أفهم نفسي وسأحتاج إلى مَن يُترجمني)؛ ولهاتين الطبيعتين الحق في الظهور جنبًا إلى جنب في كل ما أكتبه، والشيء الوحيد المهم حقًّا الذي يهمني أكثر من أي شخص آخر هو أن من يقرؤني لا يمكن أن يضع هذه الطبيعة على حساب الأخرى أو أن يخلط بينهما.

لم أتعلم اللغة العربية لأنتقص من نفسي، ولا لأجعلها عظيمة – ولا أكتفي بوضع ملاحظاتٍ كلما بدا لي ذلك مناسبًا لتوضيح ما أنا بصدده، لكن غالبًا ما أُدرج ضمن ترجمتي (وبين قوسين) جُملًا كاملةً غير موجودة في النص؛ ومع كل هذا أدَّعي بأنني أمين، والحق أنني كذلك بالفعل، بما أنني أعكس فكر الراوي. لا شك لديَّ في أن البعض سيلومني، على تبنِّي هذا المنهج في الترجمة؛ لكني سأعتمد –لأعزي نفسي– على نتيجة آراء أولئك الذين يعرفون كيف يتذوقون تشابُه صورةٍ من الصور من دون أن يطلعوا على الأصل، أولئك الغرباء على مشرقي، سوف يكتسبون من الصفحة الأولى الثقة في دراساتي وفي نقدي وفي حبي للعصور القديمة وللحقيقة. اقرأ مغامرات بابا، هذه اللوحة الفنية التي تتحدَّث عن العادات الفارسية، هذا النموذج المكتمل من الكتب حول المشرق. إن الحس السليم والعقل الأوروبي

يُهيمِنان على كل شيء في هذا النص؛ وبالفعل يجب عليهم السيطرة على كل شيء على الأرض؛ لأن من صلب جوهر العقل الأوروبي الاستحواذ على الأشياء من دون تشويهها. وهنا يكمُن التوافق الباهر (...)؛ ولا يأتني أحد ليقول لي إن مؤلف حاجي بابا أراد أن يكتب رواية في حين أنني أريد أن أكتب تاريخًا: كلانا مترجم، وكلٌّ منا في تخصُّصه، وكل الفرق بيننا هو أنه ترجم الحكايات المتداولة في مقاهي بلاد فارس، وأنا أترجم القصص التي وجدتها في كتب ابن عبد ربه، عالم فقه اللغة الشهير المتميز الذي صنع البهجة في قرطبة في نهاية القرن الثامن عشر من العصر المسيحي. ما عبرت عنه للتوِّ يدخل في إطار الأمنية أكثر من كونه حكمًا نابعًا من عقلي".

*****

- حالة شبه الجزيرة العربية (1839)[1]

"ينقسم سكان شبه الجزيرة العربية بشكل طبيعي إلى ثلاث فئات محددة:

- المدن التي تتألف، كما في كل مكان، من مُحامين وتجار، وأصحاب أملاك، وحرفيين...إلخ. وهناك الأرياف التي تظهر بها

(1) FRESNEL F., 1839, L'Arabie, Dans Revue des DEUX MONDES, Tome 17, 27, p: 22.

المزارع التي هي عبارة عن تجمعات قروية. وهناك الصحراء لحياة البادية. والواقع أن هذا التقسيم الأخير (الصحراء) هو الأكثر إثارة من التقسيمات الأخرى، وقد استعصت على سيطرة الأجانب، على الأقل داخل شبه الجزيرة العربية؛ لكن هذه الميزة لا تخصُّها حصريًّا، فهناك جزء لا يُستهان به من سكان المناطق الزراعية حافظوا على استقلالهم. يظهر لي ذلك جليًّا في منطقة عسير الجبلية الواقعة بين تهامة الحجاز واليمن. إن أولئك الذين تابعوا أحوال الشرق يعلمون أن هذه المنطقة الجبلية هوجمت ثلاث مرات أو أربع وتعرضت للغزو مرة واحدة، ولكن من دون جدوى؛ نظرًا للمقاومة الدائمة لهذه المنطقة، والتي تَعِدُ أيضًا بمقاومة طويلة ضد محاولات نائب الملك.

قِلــة من الناس، خارج الحجاز واليمن، يَعُون ضرورةَ محاربةِ سكان الجبال وأهميَّةَ وملاحقةِ، الذين لا يمكن الاستفادة منهم في شيء؛ لكن في شبه الجزيرة العربية، وبالقرب من مسرح الحرب لا العربي ولا التركي يمكنهم ألا يتصورا أنه في حال احتلال الحجاز واليمن فإن أكثر ما سوف يصعب ويستعصي عليهم هو غزو منطقة عسير.

إن سكان منطقة عسير فقراء، محاربون، تتملكهم أعلى درجات الغيرة على استقلالهم، إنهم سويسريو عسير الذين بقوا لقرون غرباء على الدين الذي جاء به النبي المكي وانطوى تحت

لوائه كثيرٌ من العرب، حاملًا دينَه ولغتَه إلى أطراف الغرب. ولم يتغلغل الإسلام في هذه الجبال إلا في نهاية القرن الماضي في شكل بروتستانتي، أي الحركة الوهابية (...).

لقد احتفظ بعض سكان هذه المنطقة بعادات متعارضة مع الإسلام، كشف بوركهارت واحدة من هذه العادات ترددتُ في تصديقها. لكن شهادة أخطر رجل عرفته في جدة، الحاج سالم بانعمة[1]، لا تسمح لي أن أشك في حقيقة هذه الظاهرة. – نجد أن حق المسافر عند بعض القبائل في منطقة عسير تم تأسيسه وتأطيره أفضل مما هو عليه حق الرب في أوروبا.

– إن عادة الختان في منطقة جازان مروعة، تُمارَس على البالغين، بحضور العروس وفي حال صدر منه أي أنين أو نواح أو حركة أو تمعُّرٍ على الوجه، فإن العروس تعلن على الفور بأنها لا ترغب به زوجًا لها. إن الأمر يتعلق بسلخ الشاب وهو حي! (...)، يتم جز القضيب بكامل طوله – والذي يحدث أن جزءًا لا يُستهان به من الذكور يقضون حتفهم من عواقب هذه العملية.

يمكننا أن نتخيل كيف أن الرجال الذين أرادوا الحفاظ على عادات مماثلة من خلال تطور الحضارة الإسلامية، يجب عليهم

(1) لم يذكر فرنيل على امتداد نصوصه التي تم الاطلاع عليها وتتناول شبه الجزيرة ومدينة جدة على وجه الخصوص أية معلومة تخبرنا على أي أساس وصف هذه الشخصية بالخطيرة ومن أية زاوية.

أن يحافظوا على جنسيتهم وفي الوقت نفسه يستعصون على التطويع. بالإضافة إلى أنهم جيران غير مريحين من حيث إنهم يكرهون الأتراك كما يكره الهوغونوتيون (البروتستانت الفرنسيون) Huguenot البابا".

*****

- جزء من رسالة فرنيل إلى جول مول حول مذكرات فتح الله الصايغ

" لقد انقسمت الآراء في الشرق وفي الغرب حول مصداقية المؤلف. وقد أخبرني أحد الرحالة المتنورين ممن قرؤوا كتاب السيد دو لامارتين في سورية، والذي طرح على الناس الأسئلة نفسها التي كنت أبحث عن إجابات عنها باعتقاده بمصداقية قصة فتح الله فيما يتعلق بالمعارك الكبرى التي وقعت في صحراء البادية السورية. وفي الواقع لم يكن بوسع فتح الله أن يتجرَّأ على اختلاق تلك الأحداث أو تحريفها بسبب قُربها الزمني والمكاني ممن عاصر تلك الأحداث. (وهذا على الأقل الذي ما زلت أود اعتقاده). ولكن الأمر مختلف فيما يتعلق بمغامرات البطل التي وقعت في أماكن بعيدة: يمكن أن يكون قد تخيَّلها، ومرَّرها باعتبارها سرديات تاريخية ذات مصداقية عالية. وهذا ما فعله، إذا اعتمدنا على ما ذكره أحد مستشاري سعود وابنه سيئ الحظ عبد الله.

إن أهم جزء من رحلة فتح الله ومن الكتاب الفرنسي [كتاب دو لامارتين] -إن جاز لي القول- هو قصة المقابلة بين شيخ بدوي هو الدريعي بن شعلان مع (ابن سعود) في الدرعية عاصمة نجد. هذه المقابلة كما يرويها لنا الصايغ ذات تأثير درامي محض، وكنت أتمنى من أعماق روحي أن تكون صحيحة. اعتقدت أنها صحيحة معتمِدًا على العاطفة أكثر من اعتمادي على العقل. يا للحسرة ! يجب عليَّ أن أتخلَّى عن تصديق ما جاء في تلك الصفحات الجميلة حول تاريخ الصحراء. كما يجب عليَّ -مع تقدُّم العمر- أن أفقد كل يوم شيئًا من سخاء سذاجتي التي شكلت الجانب الجذاب لنصف عمري؛ إذ إنه ليس تفاصيل المقابلة وحدها غير صحيحة، ولكن الواقعة الرئيسة مُلفَّقة أيضًا. تخيَّلوا أن رِجْل الدريعي لم تطأ إطلاقًا بلاط سعود ولا بلاط والده عبد العزيز ولا ابن سعود، عبد الله! إن أول ما فعلته عند وصولي إلى جدة هو إعادة الترجمة باللغة الفرنسية الجزءَ كاملًا الذي يتناول هذه الواقعة التي أشرتُ إليها قبل قليل، ثم بعد ذلك مرَّرت نسخةً منه للسيد ماسرانو طبيب خورشيد باشا، راجيًا إياه أن يَعرِضها في المكان الذي وقعت فيه الأحداث، أي في نجد أو الدرعية، إن كان ذاهبًا إلى هناك على الأشخاص الذين يمكن أن يشهدوا حول صحة أو خطأ قصة فتح الله هناك. بعدها غادرت جدة عائدًا إلى القاهرة قبل مغادرة السيد ماسرانو ولم أفكر إلا بعد عودتي إلى القاهرة في يوليو 1838 أن أُسلِّم نسخةً من ترجمتي للشيخ

أحمد الحنبلي، أكثر شخص مؤهل في العالم يمكنه أن يُصدِر الحكم المطلوب عليها.

لقد عرَّف السيد فيلكس مانجه Félix Mengin في الأوساط الأوروبية الشجاعة الدبلوماسية لهذا المسلم الجدير بالاحترام الذي بعد معاناته من قسوة إبراهيم باشا الشديدة، يتنعَّم بعد ذلك ومنذ زمن بخيراته ويستمتع بكامل الحرية التي يتمنَّاها أي سجين دولة، حتى أصبح المسؤولَ عن مكتبة سموه، ومُعلِّمَ مماليكِه.

"كان عبد الله بن سعود يستطيع تخليص بلده من أعدائه بقوة السلاح، ولكنه أراد مع ذلك اللجوء إلى المفاوضات،؛ إذ إنه أرسل اثنين من مستشاريه هما الشيخ محمد (يُقرأ أحمد) الحنبلي وعبد العزيز بن محمد إلى مقر القيادة العامة للجيش التركي، وعرض السلام على إبراهيم باشا، شريطة أن يرفع الحصار عن مدينة الرس. ومن دون أن يستمع إلى الطلب الذي يحمله هذان المبعوثان، استدعى ابن مزروع حاكم المدينة وبلغه بوجوب تسليمها، فقال له الشيخ أحمد الحنبلي: "هذه مكابرة، فأنت تهاجم الرس منذ زمن ووقت طويل ولم تستطع الاستيلاء عليها! فثار غضب إبراهيم من هذا الكلام، وجعل الشيخ يندم بعد ذلك على تجاوزه في الكلام". وبعد رحيل عبد الله (ابن سعود) أمر إبراهيم بالقبض على الشيخين أحمد الحنبلي وصالح بن رشيد اللذَيْن سمحا لنفسيهما عندما جاءا إلى معسكر الرس بصفتهما مبعوثَيْن

من عبد الله بمخاطبته بطريقة غير لائقة، فأمر بخلع أسنان الأول، ووضع الثاني على فوهة مدفع بعد أن أمر بضربه بالعصي.

إن هذا الشيخ، أحمد الحنبلي الذي اقتلع إبراهيم باشا أسنانه واحدًا بعد الآخر هو بالتحديد نفسه الذي أطلق حكمه الذي سوف يرد أدناه على قصة فتح الله الصايغ. كتبه بخط يده على النص الذي بعثته إليه، وأعيد إليَّ مؤخرًا بعد عودتي من مالطة. أبعث إليكم نسخةً من ترجمتي العربية وعليها تعقيباته، راجيًا ألا تعدونني مسؤولًا عن غِلظة عباراته".

*****

بعض ما قيل عنه

ما قيل عن فرنيل، بعد الاطلاع على ما وقع في أيدينا من أعماله، يُعدُّ مقارنةً بما ترك لنا من إنتاج معرفي شحيح جدًّا. نتحدث هنا عن الفضاء الفرنسي، والسبب قد يعود في ذلك إلى عدم إعادة نشر معظم أعمال فرنيل عبر دور نشر معتمَدة تنقل هذه الأعمال إلى فضاءات التلقي والنقد. ما ننقله هنا من شهادات تتميز بثقل قائليها، بخاصة ما يتعلق بالوجاهة المعرفية لما تركه فرنيل من رسائل ومقالات. أما في الفضاء العربي، فإنه، كما أشرنا في المقدمة، على حد علمنا لا وجود يُذكر لفرنيل عدا تلك الإشارات المقتضَبَة حول دوره في اكتشاف اللغة الحميرية،

ومحاولة فك شفرتها، ممهدًا الطريق لمن لحق به من المُهتمِّين بهذه اللغة.

– جميس دارمستتر

جيمس دارمستتر James darmesteter اللغوي الفرنسي والمتخصص الضليع في الزرادشتية، والأستاذ في الكوليج دو فرانس توقف بنوع من التفصيل عند منتج فرنيل المعرفي ومسيرته العلمية. حرص دارمستتر على لفت الانتباه إلى أهمية إسهامات فرنيل المعرفية. يقول دارمستتر في كتابه "مقاربات مشرقية"[1] والسياق هنا، بشكل عام، حول آخر عمل قام به فرنيل والمتمثل بالإشراف على بعثة التنقيب الفرنسية إلى منطقة بابل التي انطلقت من باريس في عام 1851. يقول دارمستتر: "يتصف فيلجانس فرنيل بفضولٍ كونيٍّ، وبذائقة فنية عالية. انخرط في مسارات معرفية متعددة، درس الفيزياء، والأدب الخالص la littérature pure وترجم كتاب بيرزيليوس في الكيمياء، وحكايات تييك Tieck، ووجد نفسه أخيرًا في بلاد أحلامه، بلاد المشرق. استقرَّ مدة عشر سنوات في القاهرة[2] منغمسًا في الشعر العربي، وبخاصة في أجمل

(1) DARMESTETER J., Essai Orientaux, Ed. Librairie Culturelle des Beaux-Arts, Paris. P: 75.

(2) يبدو هنا أن دارمستتر لم يكن دقيقًا في هذه المعلومة، فالمدة التي قضاها في القاهرة لم تتجاوز خمس سنوات (بين 1830 و1835)، عاد بعدها إلى باريس، ثم عاد إلى الجزيرة العربية.

عصور الشعر العربي، عصر ما قبل الإسلام. ثم بعد ذلك تم تكليفه قنصلًا لفرنسا في مدينة جدة. لقد أسهم فرنيل بدرجة كبيرة في اكتشاف النقوش الحميرية الساميَّة، والتي شرعت الأبواب لتطورات علمية هائلة.

من مقر قنصليته في جدة، وعلى أبواب مدينة مكة، وهو يترقب ويتأمل قدوم الحجاج الأتراك والفرس والمصريين، تبادر إلى ذهن فرنيل خطة تجتمع على إثرها -حول فرنسا التي تسيطر على الجزائر- شعوبُ دول الوسط الإسلامي، ولغايةٍ محدَّدة وهي فتح طرق التجارة أمام فرنسا (...).

رحل فرنيل بعد زمن إلى منطقة الكلدانيين (...) ورغم الظروف غير الملائمة والقاسية التي صاحبت وجود البعثة في منطقة بابل إلا أن الاكتشافات لم تكن عقيمة؛ فقد قدَّمت لنا البعثة أنواعًا وعينات من القطع الفنية الثمينة؛ بقايا فسيفساء مشهد الصيد الذي يُزيِّن الحائط الداخلي لقصر نبوخذ نصر، وقطع الفخار المغطاة بخط آرامي متصل مكتوب بالحبر الأسود، والتي تثبت أن الأبجدية الفينيقية التي كانت تسيطر على العالم دخلت في صراع مع الطابع القديم والهائل المتمثل في الكتابة المسمارية التي كانت قد وصلت إلى نهاية عهدها (...).

بعد ذلك، اتخذت الحكومة الفرنسية قرارها باستدعاء البعثَتَيْن الموجَّهتين للتنقيب في العراق، بعثة بلاس وفرنيل،

والسبب أن الاهتمام في فرنسا قد كان منصبًّا فقط على الاكتشافات التي بإمكانها أن تُغذِّي فرنسا بالقطع التي تصلح للاستعمال في مجال الديكور (...).

عندما تلقى فرنيل خطاب الاستدعاء، رفض الانصياع لأمر العودة، محاولًا مقاومة جميع ألوان الظروف والخيبات. كان يحلم بأن يكون هناك بعثة دائمة للتنقيب واكتشاف منطقة بابل. وفي اللحظة التي خرج من يده كل شيء كان يرغب في أن يؤسس في بغداد مدرسة فرنسية للدراسات الأثرية من الممكن أن تلعب دورًا بالنسبة للعراق مماثلًا لذلك الدور الذي تقوم به مدرسة أثينا بالنسبة لليونان. كان يرى أن العلوم الفرنسية يجب أن ترفع عَلَمها على هذه الأرض العريقة التي أسهمت في اكتشافها. لكن فرنيل لم يستطع أن ينجو من طوفان آماله الأخيرة، لقد ساءت صحته إثر إقامته الطويلة في المشرق، وإثر استعماله المفرط للأفيون الذي كان يستعمله كعلاج. توفي فرنيل في بغداد عام 1855 بعد أن خارت قواه، وأخذت منه الخيبات ما أخذت. لقد ترك فرنيل ذكرى عميقة مليئة بالإعجاب والمودة في قلوب بعض أصدقائه المخلصين، ومن دون أن يترك منجَزًا معرفيًّا دائمًا، والسبب في ذلك يعود من جهةٍ إلى أن فرنيل لم يعرف كيف يحافظ على عبقريته، ومن جهة أخرى إلى شُح الموارد المالية التي لم تُسعفه في تحقيق غاياته".

– قاستون ديشان

ممن توقفوا كذلك عند مسيرة فرنيل عالم الآثار والناقد الفرنسي الشهير قاستون ديشان Gaston Deschamps (1861–1931). قد يكون من الملائم الإشارة هنا لاستحضار ديشان لتعبير لافتٍ جدًا: (الاستشراق المناضل). من خلال محاولة (سريعة) للبحث عما إذا كان قد استعمله أحد النقاد أو المتخصصين قبل ديشان، يمكننا القول إننا لم نجد له أثرًا في دراسات الاستشراق، على الأقل في الأدبيات الفرنسية. ما يلفت الانتباه في هذا التعبير هو دِقَّته الوصفية لحالة كثير من المستشرقين والمستعربين الذين انفتحوا على المشرق بخاصة في القرن التاسع عشر، القرن الذي عُرف بقرن انفتاح الغرب على المشرق. لفظ (المناضل) هنا يفتح باب التأويل على مصراعيه، ويحيلنا على التفكير في أدبيات الاستشراق والقوانين التي تحكم خطاباتها. (وهذا بطبيعة الحال ما يمكن العودة إليه لاحقًا). والحق أنه في حالة فرنيل نلاحظ أن روح النضال حاضرة بقوة: حاضرة في تمركزه الأوروبي، تمركزه الفرنسي، في علاقته المأزومة في بداية رحلته إلى المشرق مع الإسلام، في ردوده على مَن ينتقد ثقافته...

يقول ديشان: "كان فيلجانس فرنيل من نفس دفعة ألبراند Albrand. ترجم حكايات تييك، وانتقل بعد ذلك باهتمامه

المعرفي إلى الاستشراق المناضلmilitant L'orientalisme . لقد مهَّدَتْ رسائله حول تاريخ العرب قبل الإسلام الطريق لأبحاث قولدزير[1]. كان فرنيل رجلًا سريع البديهة، مزاجيًّا، غريب المظهر، ودودًا جدًّا مع رفاقه في السفر والرحلات. احتفظ أثناء إقامته في بلاد ما بين النهرين ببعض العادات الإسلامية. يُذكر عنه أنه كان يحب البراندي برغم أنه كان ممنوعًا عنه. عاش معه، عالم الأثريات الشهير وأحد أهم مراجع الآشوريات، أوبير، مدةً طويلة في البر والبحر. أثناء السفر، كان فرنيل يمضي لياليه في كتابة التقارير للوزير في باريس. ودائمًا ما توجد على طاولته قنينة كونياك تعينه على الاستمرار في الاستيقاظ ومقاومة النعاس الذي قد يهدد تماسُك أفكاره. لقد قدم هذا الرجل الفريد والعبقري خدمة جليلة للعلم"[2].

---

(1) Glodzier باحث وكاتب يهودي مَجَري، ويعدُّ واحدًا من أشد المتعصبين ضد الإسلام، كرَّس حياته (البائسة) للنيل من الإسلام ونبِيِّه، كان لا يرى العالم إلا من خلال يهوديته المتعصبة. ولا بد من القول هنا إن في مادة فرنيل ومواقفه المتناقضة حول الإسلام بخاصة في بداية رحلته إلى المشرق ما يمكن أن يقتات عليه قولدزير.

(2) DESCHAMPS G., Les Normaliens en voyage, Edition d'Ulm, Paris.

- جول مول

نظرًا للمكانة والدور اللذَيْن حظي بهما جول مول في فضاء الدراسات الشرقية، ولدوره المهم في تطوير المجلة الآسيوية الشهيرة، فإن شهادة مول لها وزنها وقيمتها العالية، بخاصة على المستوى المعرفي. مول لم يكن من أولئك الذين ينشرون ما يتلقون من رسائل ونصوص بمجرد أن هذه النصوص تحمل أسماء لها مكانتها، أو تلك التي تمتلك رأس مال رمزي شيَّدته لاعتبارات معينة. من يطَّلع على العتبات والمقدمات التي يستفتح بها مول النصوص العميقة التي نُشرت أثناء مدة إشرافه عليها يلاحظ مباشرة الأهمية العالية التي يوليها لقيمة (التحقُّق) باعتبارها واحدة من أهم قِيَم المعرفة، واحترام العقد التواصلي مع المتلقي. وقد لا نبالغ في القول إن مول هو واحد من الذين رسَّخوا قيمة (التحقُّق) في فضاء النشر المعرفي في فرنسا. عندما يتوجَّس مول، يُعمِل الشك المعرفي وليس الشك المتقاعس، يتساءل، ويستقصي، و(يستنجد) بالمتخصصين قبل أن يقرر نشر النصوص. (وبطبيعة الحال موقف مول من وصف لامارتين لرحلة فتح الله الصايغ خير مثال).

هذه الشهادة من مول حول فرنيل -رغم أنها مختصرة- معبِّرة للغاية عن شخصية فرنيل وتعقيداتها. من يقرأ فرنيل ويتتبع مسيرته العلمية يعي بلاغة وصف مول لصديقه فرنيل. اللغة

الفرنسية الباذخة، الروح المرحة، والأهم من كل هذا أن فرنيل ترك لنا منتجًا معرفيًّا عميقًا سوف يقاوم الزمن.

يقول السيد جول مول: "كان رجلًا فريدًا وموهوبًا، وذا شخصية لطيفة وحوار شيق وكرم مبالغ فيه، وروح مرحة ومليئة بحيوية نادرة وفصاحة مدهشة، وترك أثرًا في العلم لا يمكن محوه أبدًا، ولكنه لم يحظَ بالمجد اللائق بموهبته وكل السعادة التي تستحقها روحه لأنه لم يتمكَّن قط من تهذيب روحه، وضبط عقله"[1].

(1) 27 عامًا من تاريخ الدراسات الشرقية...إلخ، تقرير 23 يونيو 1859، نقلًا عن الدكتورة/ أمل الصبان، نيكولا بيرون، المركز الثقافي للكتاب (ضمن مشروع التعاون بين جائزة الملك فيصل ومعهد العالم العربي في باريس)، صـ 97.

قائمة ببعض أعمال فيلجانس فرنيل

1. FRESNEL F., 1836, Lettres sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, BARROIS PERE et B. DUPPART, Paris, 114: pages.
2. FRESNEL F., 1838, Troisième lettre sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, dans Journal Asiatique n°: Février 1838. Paris, PP: 113 -146.
3. FRESNEL F., 1838, Cinquième Lettre sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, dans Journal Asiatique n°: Décembre 1838, Paris, PP: 529-570.
4. FRESNEL F., 1844, Extraits d'une lettre de M. Fresnel à M. Jomard (membre de l'institut de France) sur certains quadrupèdes réputés fabuleux, imprimerie Royale, Paris, Extrait du n° 4 du Journal Asiatique de l'année 1844., 35 pages.
5. FRESNEL F., 1853, Lettre sur les découvertes à Babylone, dans Journal Asiatique, juin 1853, PP: 486 – 548.
6. FRESNEL F., 1838, Lettre sur le récit de Fath-Allâh Ssaâyégh inséré dans le tome IV des Souvenirs

d'Orient de M. de Lamartine, Journal Asiatique: janvier- Février 1838, pp: 166-183.

7. FRESNEL F., 1821, De l'emploi du chalumeau dans les analyses chimiques et les déterminations minéralogiques; par M. Berzélius. Traduit du suédois par F. Fresnel, Edit Méquignon- Marvis, Paris, 420 pages.
8. FRESNEL F., 1848, Mémoire de M. Fresnel, consul de France à Djeddah, sur le Waday.
9. FRESNEL F., 1839, Lettre sur la géographie de l'Arabie, par Fulgence Fresnel, Journal Asiatique n ° Juillet 1840, pp: 83-96.
10. FRESNEL F., 1839, L'Arabie, Dans Revue des DEUX MONDES, Tome 17, 27 pages.
11. FRESNEL F., 1871, L'Arabie vue en 1837-1838, Journal Asiatique n°: Janvier – Février 1871, 104 pages.